

ابنُ دُرَيْدِ الأَزْدِي... شاعراً

د. الطاهر أحمد مكي

شغلت حياة ابن دريد قرابة قرن كامل من الزمان، يجيء قمة بين عصور العربية الزاهرة، أدباً وثقافة، واضطراباً وعنفاً سياسياً، وشهد طلائع الوهن الذي أصاب الدولة، حين اجترأ الناس على الخلافة، وبعدت الشقة بين العناصر المختلفة، وأخذت الموالى تكيد للعرب علانية أحياناً، وسراً وفي دهاء أغلب الأحيان، وجاء الوهن من اعتماد الدولة على غير العرب، وحين استجاب أبناء الجوارى من الحكام لعواطفهم، فمال المأمون إلى الفرس لأن أمه فارسية، وأكثر المعتصم من الترك لأن أمه تركية، وكون منهم جيشاً منتظماً، وأكثر منهم حتى سيطروا على أجهزة الدولة، وأشاعوا الفوضى في بغداد، واضطر أن يبني مدينة سامراء، عام ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م، ويتخذها حاضرة خلافته، وينقلهم إليها وشدد الرقابة عليهم، ومنعهم من الاختلاط بالناس، واشترى لهم جوارى تركيات، وزوجهم منهن. وأجرى لهم رواتب خاصة، ولم يجد ذلك كله شيئاً، فاضطر أخيراً أن يرحل إلى دمشق، ثم قتل على أيديهم هناك، وكان أول خليفة يقتل على يد الأتراك^(١).

وقد أدى هذا الضعف إلى تفكك الدولة فقامت ثورة بابك الخرمي، وثورة الزنج، وثورة القرامطة، نجح بعضها، وأخفق البعض الآخر، ولكنها عملت جميعها على تمزيق هيبة الخلافة، ووحدة الدولة، وإذا كان بعض هذه الثورات قد مس ابن دريد من بعيد بوصفه مواطناً عربياً غير عادى، إلا أن ثورة الزنج قد مسته من قريب جداً، ولفحته بحر نارها، وقريب منها كانت ثورة القرامطة، والاختلاف حول هاتين الثورتين واسع جداً، والنظرة المحايدة، لتأخذ مكانها الصحيح من حركة التاريخ العربي، سلباً وإيجاباً، فلم تكونا شرّاً خالصاً، وإنما كان فيهما خير كثير^(٢).

(١) ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية، ص ٢١٢، دار المعارف، مصر ١٩٢٣، والطبرى ٣٨١/٧، واليعقوبي، تاريخ البلدان ٢٣، والفخرى، الآداب السلطانية ص ٢٢٠.

(٢) انظر: الطبرى ٥٤٣/٧، وبروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢١٥، ٢٢٨، الطبعة الرابعة،

بيروت ١٩٦٥.

وأدى اتساع الدولة إلى تعدد العناصر التي تتألف منها، وبدأت المقومات القبلية تذوب في المدن الكبرى، وتحل مكانها صلات أخرى تقوم على العلم والذكاء، والكفاءة الفردية والموهبة، أو الثروة والجاه، وراجت التجارة، وكثر المال في أيدي الناس، ومضى المجتمع الغنى مع الترف إلى آخر مدى، في بناء القصور، وابتكار الأزياء، وتنوع الطعام، وكثرة الرقيق، وتعدد مجالس الغناء والشراب، وشيوع سباق الخيل، واستخدام الحمام الزاجل ولعبة الصولجان، والشطرنج والنرد وغيرها.

ولم يكن يعدل ترف الطبقة العليا، وإقبالها على الحياة واللذات، غير يؤس الطبقة الدنيا وفقرها المدقع وحرمانها من كل الطيبات^(١).

وفي الجانب المقابل لكل ما سبق كانت هناك حياة علمية ناهضة، أصيلة تصدر عن العرب أنفسهم، وتستلهم تاريخهم وتراثهم، أو وافدة تنساب عليهم من أنحاء مختلفة، من الفرس والهنود واليونان والسيان عن طريق الترجمة، والناس في هذا يذكرون المأمون وفضله، وينسبون المتوكل ودوره، ولم تكن كل الأفكار التي جاءت بها الترجمة مما يرضى عنه العرب والمسلمون، فكان عليهم أن يدفعوها بالفكرة، وواجهوا تحدياً حضارياً عقلياً، كان عليهم أن يثبتوا قدرتهم على فهمه ومواجهته، وقام المعتزلة بالجهد الأكبر في هذا الجانب، ولم يقف العرب عند الدفاع وإنما تجاوزوه إلى الابتداع، فابتكر الخليل بن أحمد الفراهيدي علم العروض، والخوازمي علم الجبر، وترجموا غيرهم وشرحوه أو علقوا عليه، فترجم الحجاج بن يوسف بن مطر مصنفات أقليدس، وكتاب بطليموس الشهير عند العرب بالمجسطى للخليفة المأمون، واقتبس الخوارزمي كتاب بطليموس في صورة الأرض، وترجم حنين بن إسحاق كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتب أخرى^(٢).

وبدأ الراغبون في شتى جوانب المعرفة الإنسانية، نظرية وعملية، يقرءون وهضمون ويتمثلون، ويفرزون أفكاراً متقدمة، في الأدب واللغة والمنطق والفلسفة والفقه وعلم التوحيد والتاريخ والطب والكيمياء.

إنه عصر أقطاب الفقه: مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل والتوبختي، وأئمة الحديث

(١) قدم المستشرق السويسري آدم متز في كتابه عصر النهضة في الإسلام، وترجمه الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة بعنوان «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، صورة دقيقة ومفصلة لجوانب الحياة الاجتماعية المختلفة في العالم الإسلامي في ذلك القرن، وجاءت ترجمته في جزأين، وصدرت طبعته الأولى في القاهرة عام ١٣٦٦ - ١٩٤٧، ثم توالى إعادة طبعه بعد ذلك.

(٢) فيليب خورى حتى، تاريخ العرب، ترجمة محمد ميروك نافع، ص ٣٨٧ - ٣٩٠، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٩.

الكبار، مسلم بن الحجاج، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، وأعلام التصوف: أبو يزيد البسطامى، وأبو سعيد الخراز، وأبو بكر الشبلبى، وغيرهم كثير^(١).

وكان وراء هذا الازدهار عوامل عدة: هناك الخليفة ووزراؤه وعماله، يقربون العلماء ويشجعون الأدباء، ويسخون على المفكرين بلا حساب، فأصبح العلم سند من لا سند له، ودعامة من جاء إلى الحياة مجرداً من عصبية القبيلة أو سطوة المال.

وأذكت المنافسة بين العناصر المختلفة روح البحث والتسابق، فغير العرب يقتحمون مجال العلوم العربية ليثبتوا كفاءتهم، والعرب يشمرون عن ساعد الجد في العلوم الوافدة وفي تراثهم ليبرهنوا على أنهم ليسوا دون غيرهم، وعاد ذلك كله بخير عميم على الحضارة العربية، لا زلنا نرتوى منه، ونقطف ثمار غرسه حتى يومنا هذا.

وأصاب الأدب نفسه تطور عظيم، نثراً وشعراً، فلم يعد النثر بدائياً لا يتجاوز الخطبة والوصية والرسالة، وإنما تجاوزها إلى القصة والمناظرة، ثم أصبح فناً تؤدي فيه العلوم الشائعة على كثرتها وتنوعها، وألوان من القول كان يختص بها الشعر من قبل، من مدح وهجاء، ووصف ورتاء، وفخر، وتحمير واعتذار، وتأليف وترجمة وغيرها^(٢).

وسوف يعرض الشعر لألوان جديدة من القول لم تكن معهودة من قبل، فأبو يعقوب الخريزى، وعمرو بن عبد الملك الوراق يبيكان بغداد حين حاصرها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون أثناء الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ - ٨١٢ م، ولاقت خلاله بلاء شديداً يعجز عنه الوصف، فذك الجيش أحياء برمتها، «وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسنها»^(٣). وابن الرومى يرثى مدينة البصرة حين اقتحمها الزنج، وقتلوا دون رحمة كل من وقع في أيديهم من الأسرى وغير المحاربين، ودمروا المدينة عن آخرها، وصور فجانعها وما تعرضت له من بلاء ومحن^(٤). وشاع الغزل بالمذكر، وتطور شعر الخمريات تبعاً لتطور الحضارة، فوصف

(١) درس أحمد أمين هذا العصر دراسة رائعة مستوعبة في كتابه ضحى الإسلام، في ثلاثة مجلدات، وصدرت طبعته الأولى في القاهرة عام ١٩٣٣ - ١٩٣٦.

(٢) تناول طه حسين هذه القضية في كتابه «من حديث الشعر والنثر»، وهو جملة محاضرات ألقاها في أمكنة مختلفة عامى ١٩٣٠، ١٩٣١، ونشرت في القاهرة عام ١٩٣٩، غير أن الكثير مما قاله يحتاج إلى إعادة نظر في ضوء ما نشر من نصوص جديدة.

(٣) انظر: تاريخ الطبرى ٤٤/٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦. والحيوان للجاحظ، ٢٢٥/١، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مكتبة الحلبي، القاهرة، ودراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، للدكتور الطاهر أحمد مكى، ص ٢٠١ - ٢٠٢، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨.

(٤) دراسات أندلسية، ص ٢٠٣.

مجالس الشراب وروادها وآنيتها، وبدأ شعر المجون يأخذ وضعًا فاضحًا، وتلتقى بشعر الزهد رد فعل ومواجهة لكل ما سبق.

ذلك هو العصر الذي عاش فيه شاعرنا أبو بكر بن دريد، ولم يكن شاعرًا فحسب، وإنما كان لغويًا ونسابة، ودنيا عريضة من العلم والرواية.

* * *

أبو بكر، محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن الحسن^(١) بن حمّام^(٢)، وتضى السلسلة حتى تبلغ نصر بن الأزد جد القبيلة الأعلى، وتتوالى حتى تصل قحطان نفسه، ولا أظنني بحاجة إلى إيرادها كاملة هنا، فما من جديد يمكن أن تضيفه لبحثنا هذا، وبحسب من يريد أن يعود إلى المصادر التي ترجمت لابن دريد^(٣).

ويُوصف ابن دريد بالأزدى نسبة إلى قبيلته، والعماني نسبة إلى موطنها، والبصري نسبة إلى مولده، واللغوي نسبة إلى ما غلب عليه من علمه، وحمّام نسبة إلى قرية حمّام من نواحي عمان، ويروي ابن دريد نفسه أن حمّام هذا أول من أسلم من آباءه، وكان من السبعين ركبًا الذين خرجوا مع عمرو بن العاص من عمان إلى المدينة لما بلغهم وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام^(٤).

ويرى غالب بن علي إمام عمان أن ابن دريد حديدي، وبنو حديد قومه لا يزالون في دما التي تعرف اليوم بالسبب من الباطنة، وبعضهم بوادي العين من أودية بني هناة من الأزد، ويطون الأزد كبنى حديد واليحمد والعنيد وخروص وغيرهم منتشرون في عمان، ونيغ منهم الأئمة والقضاة والرؤساء^(٥).

(١) في بعض المصادر ابن حسين، انظر: ابن هشام اللخمي، الفوائد المحصورة في شرح المقصورة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ص ١٠٤، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م.

(٢) في بعض المصادر بن حام، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المصادر الأساسية لدراسة ابن دريد هي: مؤلفاته نفسها، ومقدمات محققها، ومروج الذهب للمسعودي الجزء الثاني، ومعجم الشعراء للمرزباني، ومراتب النحويين للغوي أبي الطيب، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي، والفهرست للنديم، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، الجزء الثاني، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الانباري، وارشاد الأريب لمعرفة الأديب لياقوت، وانباء الرواة على أنباء النحاة للقطبي، الجزء الثالث، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وبقية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي، وطبقات الشافعية للسبكي الجزء الثالث.

(٤) الاشتقاق، ص ٢٢١.

(٥) مقدمة وصف المطر وما نعته العرب الرواد من البقاع لابن دريد، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق

١٩٦٣ م، ص ١١.

ومهما يكن من أمر فابن دريد أزدى، وكثير من المصادر يدعو العمانى^(١)، وهؤلاء الأزد يفخر السيد الحميري.

والأزد أزد عمان الأكرمون إذا عدت مآثرهم في سالف الزمن
بسانت كريمتهم عنى فدارهم دارى وفى الحب من أوطانهم وطنى^(٢)
وكان أهله من رؤساء عمان وذوى اليسار فيهم، وأقرب الظن أنهم كانوا يشتغلون بالتجارة، ثم وفدوا على البصرة فيمن وفد من قبائل الأزد، وقد أصبحت هذه منذ أن اختطت مدينة في الإسلام على صلة قوية بكل القبائل التي تتناثر على الجانب العربي حتى مسقط جنوباً وأحياناً كان يطلق على المنطقة كلها اسم البحرين أو هجر، وتعيش على التجارة تعامللاً أو نقلاً أو حراسة، فيها بين شرق أفريقيا والهند والصين وأندونيسيا وبين البصرة.

نزل الأزد في أطراف مدينة البصرة، في الجزء الجنوبي الغربي منها، قرب وادى العقيق، وظلوا يترددون دائماً بينها وبين عمان، حسب ما تقتضيه دواعى العمل وظروف العيش، لم ينقطعوا عن موطنهم الأول، ولا عن عشيرتهم الأقرين، تجارة أو تزاوراً، وربما كان هذا الترحال المستمر وراء قول تلميذه المزرباني في معجم الشعراء، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، والسمعاني في الأنساب، إنه نشأ في عمان^(٣).

كان دريد جد أبى بكر صاحبنا، أول من نزع مع أسرته إلى الشمال خلال القرن الثاني للهجرة، واستقر بالبصرة شأن بنى عمومته، ولا تملك تفصيلات وافية عن حياة الجد فيها، وأحسبه أصاب شيئاً من فيض المدينة الثقافى، فقد كانت طوال القرنين الثاني والثالث الهجريين تروج بنشاط علمى عظيم، وكانت مساجدها تزدهم بحلق الدرس في كل فروع المعرفة من الحديث والتفسير والمناظرات وعلم الكلام، إلى اللغة والنحو والقصص والأشعار، ونعرف أكيداً أنه أنجب ابنين هما: الحسن والحسين، وأن شاعرنا ابن الأول منها، وأن الثانى قد تكفل بتربيته وتأديبه، فقد كان على شىء من العلم، «يروى عن ابن الكلبي وغيره، وسمع من السكن بن سعيد، ومن العكلى، ومن ابن معاذ، ومن الأثرم، وهؤلاء مشاهير من روى عنهم»^(٤).

ولد ابن دريد في البصرة، في سكة صالح، عام ٢٢٣ هـ - ٨٣٧ م، في خلافة المعتصم، وهو ما تلتقى عنده كل المصادر تقريباً، ولكن إبراهيم أطفيش الجزائرى، في مقدمته لكتاب الملاحن،

(١) المسعودى، مروج الذهب ٥٠٨/٢، طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ.

(٢) الديوان ١٨٤.

(٣) معجم الشعراء ٤٦١، وتاريخ بغداد ١٩٥/٢، والأنساب ٢٢٦.

(٤) الفوائد المحصورة في شرح المقصورة ص ١٠٥، وبالهامش تعريف بكل هؤلاء الأعلام، وإحالة إلى

مصادرهم.

يقول: «ولكن العتبي يقول عن العتكي: دخلت على ابن دريد قبل موته فسمعتة يقول: ولدت ليلة الجمعة في أحد الربيعين سنة خمس وعشرين ومائتين»^(١) ولم يذكر المحقق المصدر الذي نقل عنه هذه الرواية، فلعل راويها سها، أو لم يرهف السمع، وأيا ما كان الأمر فهو خبر فرد في مواجهة رواية متواترة.

ويبدو أن والد أبي بكر توفي عنه صغيراً، ولم يكن له في حياته أثر، فهو لا يروى عنه شيئاً، ولم يرثه فيما وصلنا من شعره، على حين وصلتنا قصيدة له في رثاء عمه الحسين، وكان هو الذي قام على تربيته، وتكفل بتشجيعه، وعهد بتأديبه إلى ابن عثمان الأشنانداني^(٢). المتوفى عام ٢٨٨ هـ - ٩٠١ م، فلقنه اللغة وأشعارها، ونعرف من خبر لابن دريد نفسه أنه كان يقرئه الشعر، وأنه حفظ على يديه ديوان الحارث بن حلزة، وفيما بعد سوف يروى التلميذ أبو بكر عن أستاذه ابن عثمان كتابه «معاني الشعر».

وما لبث أن اختلف أبو بكر إلى مساجد البصرة، يتابع فيها حلق الدرس المختلفة، العامرة بكبار العلماء، شأن أترابه في ذلك العصر، يفاتش كثيره في مختلف مسائل اللغة والشعر، ونعرف يقيناً أنه حضر مجالس أبي حاتم السجستاني، وتوفي في حدود سنة ٢٥٠ هـ - ٨٦٤ م، واستفاد منه معرفة بأسرار اللغة ودقائقها، ولزم دروس عبد الرحمن بن عبد الرحمن الشهير بابن أخي الأصمعي، المتوفى ٢٤٠ هـ - ٨٥٥ م، فروى عنه العديد من كتب عمه وأخباره، ومن النوادر والشوارد والإلغاء التي لا تروى إلا عن أمثاله، وكان يتردد أيضاً على حلقة أبي الفضل الرياشي، المتوفى ٢٥٧ هـ - ٨٧١ م، وكان من أعلام عصره في النحو والاشتقاق، وروى عنه مسائل في الغريب تفرد بها، ومكنته من قلوب مريديه من الطلاب سواء في البصرة أو في بغداد^(٣).

ولكن الأحداث اضطرت به إلى أن يترك البصرة شاباً مع عمه الحسين، حين استولى عليها الزنج عام ٢٥٧ هـ - ٨٧١ م، وأعملوا السيف في رقاب أهلها، وذهب ضحيتهم خلق كثير، بما فيهم أستاذه الرياشي، فقد قتلوه وهو يصلى الضحى في مسجده، ويم وجهه شطر عمان، وسكنها اثنتي عشرة سنة، شارك فيها قبيلته أمورها، وازدادت صلته ببلاد أجداده، وبرؤساء قومه، وبني عمومته من الأزدي، وأثرى عيشه في هذه البوادي حصيلته من عربية الجنوب ولهجاتها، وتجلى ذلك واضحاً في كتابه الجمهرة، فقد أعطى اللهجات اليمينية والأزديّة ولهجة البحرين عناية خاصة، وترك ذلك صدى بيناً في شعره، فنحن نلتقى فيه بقصائد ذات نغم بدوي

(١) الملاحن، تحقيق إبراهيم أطفيش، المقدمة صفحة ك، القاهرة ١٣٤٧ هـ.

(٢) نسبة إلى أشنان محلة في بغداد.

(٣) الفوائد المحصورة ص ١٠٤ - ١٠٥.

عريق، مما يعرف لكبار الشعراء القبليين قبله، فهو يرثى قتلاهم من العتيك واليحمد في وقعة الروضة بتوف^(١)، ويستثير حماسهم، ويدفعهم إلى الثأر.

ولما انقضت ثورة الزنج، واستتب الأمن في البصرة وجنوب العراق، رجع إلى مدينته سنة ٢٧٠هـ - ٨٨٤م، وبقي فيها يباشر التدريس، ويعنى بشؤون عائلته المادية، فقد آلت إليه مسؤوليتها بعد وفاة عمه، وبدأ نجمه عاليًا يعلو، وتطبق شهرته أنحاء العراق.

ظل ابن دريد في البصرة إلى أن استدعاه عبد الله بن محمد بن ميكال، ويدعى الشاه بعامة، ليقوم على تأديب ولده أبي العباس، ويمكن تحديد هذا التاريخ على وجه التقريب، فنحن نعرف أن ابن دريد صنف له كتاب الجماهرة عام ٢٩٧هـ - ٩١٠م، فلا بد أن يكون ذهابه قبل هذا التاريخ، ونعرف أن المقتدر تولى الخلافة عام ٢٩٥هـ - ٩٠٨م، وهي السنة التي اختار فيها ابن ميكال عاملًا له على الأهواز، فلا بد أن يكون استدعاء ابن دريد في هذا العام، أو العام الذي تلاه، وهو ما يرجح عندي.

ولكن عز الدين التنوخي ينقل في مقدمته لكتاب «وصف المطر والسحاب وما نعته العرب الرواد من البقاع» قصة حدثه بها الشيخ سليمان السالمى ممثل إمامة عمان في دمشق لحظة تحقيق الكتاب، وكتب له بمثلها والده العلامة محمد السالمى، ابن علامة عمان ومؤرخها الشيخ نور الدين عبد الله السالمى، ويذكر أن القصة مدونة في كتب العمانيين، ولكنه لم يشر إلى الكتاب أو الكتب التي وردت فيها، وموجزها:

«أن الأميرين الميكالين خرجا ذات يوم بسفینتھما من البصرة للنزھة في بحر الخلیج العربی، فھبت علیھما ریح عواصف، وسحت دیم من الأمطار فلم یستطیعا أن یلوذا بالسواحل فلبثا فی السفینة علی ظهر البحر العجاج آیاما إلى أن بدت لھا مدینة صحار العمانیة، وبعد أن نزلا إلى مرفئھا دلھا الأهلون علی دار الضیافة الدردیة، فرحب بھما ابن درید کل الترحیب، وأكرمھما إكرام العرب للضیفان وهو لا یعرفھما، ولم یعرفاه بنفسیھما، وكان الوقت شتاء، والمطر مستمرًا، فلم یجد حطبًا للوقود لیطبخ لھا الطعام، لأن الحطب كان ریانًا بالماء، فكان يأخذ الأثواب من التجار ویغمسھا فی الزیت لیوقد بھا نار القرى».

«ولما رأى الضیفان ذلك قال الوالد لولده: هذا شیء لا یحتمله إنسان، ولا ینبغی للضیف أن یكون مملًا ومؤذیًا، فاستأذنا بالانصراف، وألحا علی ابن درید فی الرجاء حتی أذن لھا، فودعاه وكتبا له عنوان مقرھما، وكانا علی الأهواز، فلما ضاقت به الحال، وأضاعته الأيام، وكان یأبى أن یتكسب ببلاغته وشعره، رأى أن یزورها أخیرًا بعد نفاذ صبره، لیستعین بھما علی صروف دھرہ،

(١) الروضة موضع قرب بلدة توف من جهة الغرب، بین نزوی عاصمة الإمامة والجبل الأخضر.

فرحل إليهما، وحل على الأمير الميكالي ضيفاً، ولبت في ضيافته نحو شهر، فأكرمه كما يكرم سائر الناس، ولم ير منه ما كان يرجوه من الإكرام والإحسان، ولكن الأمير الميكالي كان قد جهز لمنزله بصحار سفينتين شراعتين، وكتب لأهله بلسان ابن دريد يأمرهم بأن يفتحوا دار الضيافة كعادتها، فامتثل أهله الأمر ودعا الضيوف والعفاة إلى قصدها في غيبته، ولا علم لابن دريد بالأمر.

«وضاق صدر ابن دريد، واستأذن في الرجوع، وفي نفسه أنها لم يقوما ببعض ما يستحق ويأمل، وألح في استئذانها، فجهزاه بسفينة مملوءة بما يحتاج إليه، ولم يخبراه بما فعلا، وعهدا إلى ربان السفينة ألا يخبر ابن دريد بأن جهاز السفينة بأسره له، وسأل ربان السفينة أن ينزله ليلاً كي لا يشمت أعداؤه فيه، فامتثل الربان، وطلب منه أن يعود من غد إلى السفينة.

«نزل ابن دريد ليلاً، ولم يرد أن يذهب إلى منزله مباشرة، ولجأ إلى بيت عجوز فاستضافها، وسألها أن تأذن له بالعشاء في منزلها، فعجبت العجوز لذلك، وقالت له: أترك بيت ابن دريد وتطلب من مثلي العشاء!.

«فسألها ومن أين لابن دريد أن يقبل ضيفاً، وقد أفقره الضيفان؟ فردت: إن ابن دريد بعد سفره كان يميز لمنزله في كل شهر سفينة مملوءة بالأرزاق، وإن دار ضيافته اليوم أوسع مما كانت عليه بالأمس. وعاد ابن دريد بما سمع من العجوز إلى منزله فوجد ما أدهشه، وفوق ما كان يرجو من الأميرين، وفي الصباح زاره ربان السفينة ليخبره بأن كل ما فيها من سق وأرزاق لدار الضيافة».

وقد نقبل جوهر الرواية، ولكن الكثير من التفاصيل، أو جلها إذا شئت، هي أقرب إلى الخلق القصصي منها إلى الحقيقة الواقعة، لون من التوابل البلاغية تعود القصاص أن يجملوا به ما يقولون.

قضى ابن دريد قرب الأميرين اثنتي عشرة سنة، عمل فيها مؤدباً لأبي العباس الميكالي ابن الشاه، وكان يفقهه في اللغة، وأملى عليه الجمهرة، وتقلد لها ديوان الإنشاء «فكان يصدر كتاب الديوان عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه، فأفاد أموالاً عظيمة»، ونظم فيها مقصودته فوصلاه، عليها بعشرة آلاف دينار^(١)، ولكن سخاءه وكرمه ذهب بكل ما حصل عليه. وإلى جانب هذا أفاد علمياً من البيئة الفارسية المحيطة به، وفي الجمهرة باب عنوانه «باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم»، وفيه كثير من الألفاظ الفارسية التي تعربت. وظل إلى جانب الأميرين الميكاليين إلى أن عزلا من منصبهما، فانتقل معها إلى خراسان، وأثناء ذلك

(١) الفوائد المحصورة ص ١٠٥-١٠٦. ومعجم الأدباء ١٣٧/١٨ والوفيات ٤٩٨/١.

توفي الأب، ورفض الابن العمالة، فعاد ابن دريد عام ٣٠١هـ - ٩١٣م إلى البصرة من جديد.^(١)

في البصرة أخذ يدرس في جامعها كتابه الجمهرة، وبقيّة مؤلفاته الأخرى للطلاب، وبلغ زعامة المدرسة اللغوية في المدينة، واعتبره المؤرخون خير مدافع عن مجدها العلمي، ولكنه لحظ ببصيرته النافذة أن البصرة اليوم غيرها بالأمس، لم تكن تلك التي فارقتها منذ سنوات خلت، فقد جاء ازدهار بغداد على حسابها، وأخذت هذه تستقطب صفوة العلماء وخيرة الطلاب، وبينما تلك تتقدم وتنشط وتلمع كانت البصرة تجمد وتخبو وتنطفئ، فغادرها إلى بغداد عام ٣٠٨هـ - ٩٢٠م.

دخل ابن دريد بغداد وهو في الخامسة والثمانين من عمره، وأنزله على بن محمد الخوارى في جواره، وأفضل عليه إفضالاً عظيماً، وعرف المقتدر خبره ومكانته من العلم فأمر أن يجرى عليه خمسون ديناراً في كل شهر^(٢). ثم انتقل إلى بيت مستقل، حتى يتمكن من استقبال مرديه وتلاميذه في مجالسه العلمية التي شهر بها، ونعرف من ابن خير الأندلسي أنه كان يدرس كتاب الجمهرة بمدبغة أبي عبيد الله بباب الطاق^(٣) وتعد سنواته في بغداد، من المراحل الخصبة في حياته، رغم تقدم سنه، فقد حلت بغداد مكان البصرة، وأصبحت مقصد الراغبين في المعرفة في شتى أنحاء العالم العربي، فالتف حوله الطلاب والمريدون من أمثال أبي على القالى صاحب الأمالي، والمرزبانى وينعته في معجمه «شيخنا»، والسيرافى النحوى، والأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، والآمدى صاحب الموازنة بين الطائيين، والرماني عالم البلاغة، وابن خالويه النحوى، وآخرون كثيرون، يحضرون حلقة درسه ومجالسه، ويروون كتبه وأحاديثه، وأخباره وأشعاره، بعضهم لازمه طوال أيام الطلب، وآخرون اختلفوا عليه زمنًا حين مرورهم ببغداد^(٤).

ثمة جانب من حياة ابن دريد لما يزل غامضاً حتى يومنا، وهو حياته العائلية، ذلك أن المصادر التي ترجمت له أو تابعت رحلاته لا تتحدث عن أسرة له، ولا نعرف له ذرية، ابناً أو بنتاً أو أصهاراً، فيها خلاص غير واضح للقاضى أبى على الحسن بن القاسم التنوخى، المتوفى ٣٨٤هـ - ٩٩٤م، في كتابه «الفرج بعد الشدة»، يرويه عن إبراهيم الخواص، يقول: «حدثني

(١) المزهر للسيوطى ٩٤/١، وحاجى خليفة، كشف الظنون ص ٦٠٥.

(٢) الفوائد المحصورة ص ١٠٦.

(٣) فهرسة ابن خير، الطبعة الثانية، ص ٣٤٨، القاهرة ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م.

(٤) أورد السيد مصطفى السنوسى في مقدمته لتحقيق «تعليق من أمالى ابن دريد» قائمة وافية بتلاميذه،

ص ٢٤ - ٣٠، وتبلغ عدتهم عنده أربعة وستين تلميذاً، ممن كان لهم دور في الحياة الأدبية، الطبعة الأولى، الكويت ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

أبو بكر البسطامي صاحب ابن دريد، وكان زوج ابنته، وكان شيخاً من أهل الأدب والحديث، وقد استوطن الأهواز سنين...»^(١).

وهو نص يفيد أكيداً أن ابن دريد تزوج أو زوج، ولكنه غير واضح فيما وراء هذا، فلا نعرف على سبيل القطع أو الترجيح: هل تزوج البسطامي بنت ابن دريد، أم أن ابن دريد تزوج بنت البسطامي.

وهو على رأس التسعين من عمره، عرض له فالج فعولج منه، فبريء وصح، ورجع إلى ما كان عليه من إسماع تلاميذه وإملائه عليهم، ثم عاوده الفالج بعد حول، وكان يحرك يده حركة ضعيفة، ويظل من محزمه إلى قدميه، وكان مع هذا الحال ثابت العقل والذهن، يرد فيما يسأل عنه ردّاً صحيحاً بالطبع. ويقول تلميذه أبو علي القالي: إنه عاش بهذا الحال عامين، وكنت أسأله عن شكوكي في اللغة، وهو بهذه الحال فيرد بأسرع من النفس بالصواب^(٢).

وقد توفي يوم الأربعاء لثمانى عشرة ليلة خلت من شعبان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ودفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقى، في ظهر سوق السلاح من الشارع الأعظم، ودفن معه في اللحظة نفسها أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائى المتكلم المعتزلى، فقال الناس: اليوم مات علما اللغة والكلام^(٣)!

* * *

كان ابن دريد عربى الخلق والشيم، ويصفه تلميذه المرزبانى بأنه «سمح الأخلاق» و«له نجدة فى شبابه وشجاعة وسخاء وسماحة»^(٤) ويزيد ابن خلكان: «كان مفيداً مبيداً لا يمسك درهما سخاء وكرماً»^(٥) وكان حريصاً على كرامته، معتزلاً بنفسه، كتب إلى أحمد بن محمد بن رستم، وكان مؤدباً لولد ابن الفرات الوزير، ويسكن عنده بقصره على النهر فى بغداد، وقد حجب ابن دريد عن لقائه فيما يظن:

حجابك صعب يجيه الحر دونه وقلبي إذا سيم المذلة أصعب
وما أزعجتني نحو بابك حاجة فأجشم نفسى رجعة حين أحجب^(٦)

وتلح المصادر جميعها على أنه كان يدمن الشراب، ويرى المستشرق الفرنسى إيوار Huart

(١) التنوخى، الفرج بعد الشدة ٢٨٩/١، القاهرة ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م.

(٢) الفوائد المحصورة ١٠٦، والوفيات ٤٩٩/١.

(٣) أنباه الرواة ٩٥/٣.

(٤) معجم الشعراء ص ٤٢٥.

(٥) الوفيات ٤٩٨/١.

(٦) الديوان ص ٧٩، وطبعة العلوى ٣٨.

في كتابه «الأدب العربي» أنه تعاقد مع الشراب خلال إقامته في فارس، فكان ينتشى حتى الثمالة^(١)، دون أن يحيلنا على المصدر الذي اعتمد عليه، أو أن أجد له توثيقاً فيما قرأت. ويحكى أبو ذر الهروي: سمعت عمر بن شاهين الواعظ يقول: «كنا ندخل على ابن دريد، ونستحي منه لما نرى من العيدان المعلقة، والشراب المصفى، وقد كان جاوز التسعين سنة^(٢). ويروي أبو ذر نفسه، عن الأزهري في هذه المرة: «دخلت على ابن دريد فرأيت سكران فلم أعد إليه»^(٣).

ويأتي بعد الأزهري وابن شاهين الواعظ من ينقل عنها قولها دون نقص أو زيادة، ودون تمحيص أيضاً، فيذكر ابن كثير أنه «كان متهتكاً في الشراب منهمكاً فيه» واستدل بقول السابقين، وختم كلامه بقوله: «سامحه الله»^(٤).

وإذا كان اتهام الأزهري يمكن رده لما كان بينها من صراع علمي سوف نعرض له، فمن الصعب أن نضع ذلك مع رواية عمر بن شاهين، وعلى أية حال لم يلق ابن دريد نفسه بالا لأى من هذه الاتهامات:

وما أحد من ألسن الناس سألما	ولو أنه ذاك النبي المطهر
فإن كان مقدماً يقولون أهوج	وإن كان مفضلاً يقولون مبذر
وإن كان سكيناً يقولون أبكم	وإن كان منطيقاً يقولون مهذر
وإن كان صواماً وبالليل قائماً	يقولون زراف يرائى ويمكر
فلا تحتفل بالناس في الذم والثنا	ولا تحش غير الله فالله أكبر ^(٥)

الذين دفعوا التهمة عنه قالوا إنه كان على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، فهو يبيع شراب النبيذ بصفات حددها، وبشروط مطلوب من الشارب ألا يتجاوزها.

فإذا تجاوزنا الجانب الشخصى إلى حياته العلمية، تبيننا المصادر أنه كان شغوفاً بالعلم، محباً للمطالعة، يرى فيها متنزهاً لقلبه، كما تكون مجالى الطبيعة متنزهاً لطرفه، روى أبو نصر الميكالى: «تذاكرنا المتنزهات يوماً وابن دريد حاضر، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق، وقال آخرون: بل نهر الآبلة، وقال آخرون: بل سغد سمرقند، وقال بعضهم: نهر وان بغداد، وقال بعضهم: شعب بوان بأرض فارس، وقال بعضهم: نوبهار بلخ، فقاللط: هذه متنزهات

(١) Huart, Clement, la litterature Arabe, trad, espagnole, p. 149-151 Bueno Aires 1947.

(٢) ابن الانبارى، نزهة الألبا ص ٣٢٤.

(٣) ياقوت معجم الأدياء ١٣١/١٨.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١١/١٧٦، طبعة القاهرة.

(٥) الديوان، ص ٢١، والعلوى ٦٨.

العيون، فأين أنتم من منتزهات القلوب؟ قلمخ: وما هي يا أبا بكر. قال: عيون الأخبار للقتبي، وازهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن طاهر:

ومن تك نزهته قينة وكأس تحث وكأس تصب
فنزهتنا واستراحتنا تلاقى العيون ودرس الكتب^(١)

وكان إلى جانب شغفه بالعلم واهتمامه به، وإقباله عليه، سريع الحفظ واسع الرواية، قوى الذاكرة، تقرأ عليه دواوين العرب فيسابق إلى اتمامها وحفظها، وما قرىء عليه ديوان شاعر إلا سابق إلى روايته لحفظه.

يروى تلميذه أبو العباس الميكالي: «أملى على أبو بكر الدريدي كتاب الجمهرة من أوله إلى آخره حفظاً، سنة سبع وتسعين ومائتين، فما رأيت استعان عليه بالنظرة في شيء من الكتب إلا في باب الهمزة واللغيف، فإنه طالع بعض الكتب».

جمع ابن دريد بين العلم والإبداع، وبلغ الغاية في كليهما، في اللغة والشعر، ويراه المسعودي، المتوفى ٣٤٦ - ٩٥٧ م، «قام مقام الخليل بن أحمد، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين»^(٢)، ويزيد أبو الطيب اللغوي، المتوفى ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م الأمر توضيحاً في كتابه مراتب النحويين واللغويين فيقول:

«انتهت إليه لغة البصريين، وكان أحفظ الناس وأوسعهم علماً، وأقدرهم على الشعر، وما أزدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد»^(٣). ويضيف الزبيدي أندلسي، المتوفى ٣٧٩ هـ - ٩٨٩ م، إلى ذلك «أيام العرب، وله أوضاع جمّة»^(٤). ويقول عنه تلميذه المزرياني، المتوفى ٣٨٤ هـ - ٩٩٤ م، «كان رأس أهل العلم، والمتقدم في الحفظ للغة والأنساب وأشعار العرب»^(٥).

وهي آراء ظل كتاب التراجم ومؤرخو الأدب يتناقلونها جيلاً بعد جيل، يحملونها أو يفصلونها قليلاً، ولكنها لا تبعد عن هذا المحتوى كثيراً.

على أن هناك قلة طعت في ابن دريد عالماً، واتهمته بالتسامح في الرواية، وافتعال العربية،

(١) الديوان، ص ٨٣، والعلوى ٤١.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ٥١٨/٢.

(٣) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٨٤.

(٤) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ١٨٤.

(٥) المعجم، ص ٤٢٥.

وربما كان أشدهم تحاملاً عليه أبو منصور الأزهرى، المتوفى ٣٧٠هـ - ٩٨٠م، في مقدمة كتابه التهذيب، يقول:

«ومن ألف في زماننا الكتب فرمى بافتعال العربية، وتوليد الألفاظ التي ليست أصول وإدخال ما ليس في كلام العرب في كلامها: أبو بكر محمد بن دريد، صاحب كتاب الجمهرة، وكتاب الاشتقاق وكتاب الملاحن، وقد حضرته في داره ببغداد غير مرة، فرأيته يروى عن حاتم والرياشى وعبد الرحمن بن أخى الأصمعى، وسألت إبراهيم بن محمد بن عرفة (يعنى نفظوبه) فلم يعبأ من يكون، ولم يوثقه في روايته...».

ثم ينتقل الأزهرى إلى قضية بحثه، فيقول: «وألقيته أنا على كبر سنه سكران لا يكاد يستمر على الكلام من سكره»^(١) ويعاود الهجوم عليه علماً ثانية:

«وقد تصفحت كتابه الذى أعاره اسم الجمهرة فلم أرد على معرفة ثاقبة، ولا على قريحة جيدة، وعثرت من هذا الكتاب على حروف كثيرة أنكرتها، ولم أعرف مخارجها، فأثبتها في كتابي في مواقعها منه، لأبحث أنا وغيرى عنها»^(٢).

وتوقف الدارقطنى، المتوفى ٣٨٥هـ - ٩٩٥م، فلم يقل رأيه واضحاً، لم يثبت ولم ينف فقد سئل: أئقة هو أم لا؟ فقال: تكلموا فيه^(٣).

وأبدي ابن جنى، المتوفى ٣٩٢هـ - ١٠٠٢م، ويعتبر مؤسس مبدأ الاشتقاق الأكبر، الذى يبحث عما بين الصوت والمعنى من التناسب، رأيه في كتاب الجمهرة، حين نسخ لنفسه نسخة منه، يقول: «وأما كتاب الجمهرة ففيه أيضاً من اضطراب التصنيف، وفساد التصريف مما أعذر واضعه فيه، لبعده عن هذا الأمر، ولما كتبتة وقعت في متونه وحواشيه جميعاً من التنبيه على هذه المواضع، ما استحيت من كثرته، ثم إنه لما طال على أومات إلى بعضه وضربت البتة عن بعضه»^(٤).

ولكن جلال الدين السيوطى، المتوفى ٨٦٣هـ - ١٤٥٩م، دافع عن ابن دريد في كتابه المزهري، وعقب على منتقديه بقوله:

«معاذ الله! هو برىء مما رمى به، ومن طالع الجمهرة رأى تحريه في روايته، وسأذكر منه في

(١) الأزهرى، التهذيب، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار ص ٧٦.

(٢) معجم الأدباء ١٣٠/١٨ - ١٣٦.

(٣) القفطى، أنباء الرواة ٩٥/٣.

(٤) السيوطى، المزهري ٩٣/١.

هذا الكتاب ما يعرف منه ذلك، ولا يقبل فيه طعن نفظويه، لأنه كان بينها منافرة عظيمة، بحيث أن ابن دريد هجاه بقوله:

لو أنزل الوحي على نفظويه لكان ذاك الوحي سخطا عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه مستأهل للصفع في أخدعيه
أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخاً عليه

وهجا هو ابن دريد بقوله:

ابن دريد بقره وفيه عى وشره
ويدعى من حمقه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيره

وقد تقرر في علم الحديث أن «كلام الأقران في بعضهم لا يقدر»^(١).

وقد نقده ابن فارس، المتوفى ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م في أرجح الآراء، ورغم أنه أعجمى، الأصل فيما يبدو، أحب العربية واصطنعها لغة لنفسه، وتحمس في دفع مثالب الشعوبية عنها، ولهذا لم يقتصر على النقد فحسب، وإنما سجل له ما رآه صواباً منه^(٢). وكان ابن دريد يورد كثيراً مما أخذ عليه في صيغة الشك، كأن يقول: لا أدري، أو زعموا، أولاً أقف على حقيقته، وفي المزهري للسيوطي أمثلة كثيرة لهذا^(٣).

ويلفت النظر أن أغلب الطاعنين على ابن دريد من الموالى: نفظويه، والأزهري، وحمزة الأصفهاني، والكرماني، وابن فارس، فهل كانت الشعوبية، وراء ما كتبوا، وبخاصة أن ابن دريد دافع طويلاً عن عروبهته؟ وألف «الاشتقاق للرد على الشعوبية والشعوبيين»؟

أين موقع ابن دريد من المذاهب السياسية التي كان يموج بها عصره؟

أول ما يرد على المخاطر أنه خارجي، فهو من عمان، وكان العمانيون في زمنه أباضية متمسكين بالكتاب والسنة، ومسندهم الصحيح للإمام الربيع بن حبيب، ويميل إلى هذا الرأي ياقوت، لولا أنه رأى في بيتين من الشعر هما:

ألا انما السلو الذي تخلصونه وتأقيط أثوار كنتك العبائث

(١) السيوطي، المزهري ٩٣/١، والديوان ص ٧٦، وابن الأثير، نزهة الألبا ١٥٦، ومعجم الأدياء ٢٦٤/١.

(٢) حسين نصار، المعجم ٤٥٩/٢.

(٣) انظر مثلاً: ص ٣١٧/٢ و ٣٥٢/٢ و ٤٦٥/٣.

تعلّة أيام وقد شارفتكم شوازيها بالمارقين الأخاث^(١)
وقوله:

أتري الأزدي يقسم الذل فيها خارجي وخارب عمروط^(٢)
إنه خارج على الخوارج^(٣).

ولكن عز الدين التنوخي محقق كتاب «وصف المطر والسحاب» يقول إن صديقه العماني الذي أشرنا إليه فيما سبق، يرى أنه لا يعني بالخارجي هنا أحد الخوارج من اتباع المذهب، وإنما يريد بها الغريب الخارج عن قومه. ويرى البعض أنه شيعي اعتماداً على كثرة إيراد أخبار على واهتمامه بها، فثمة مخطوطة له في مكتبة باريس تضم «مجموعة أقوال لعلی بن أبی طالب» وتضمن كتابه «المجتبى» ولا يزال مخطوطاً أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه إلى الحسن بن علي، وأقوال الحكماء والفلاسفة^(٤)، ولكن حب آل بيت النبي لا يعني التشيع بفهومه المذهبي، والأمران جد مختلفين.

وارتآه السبكي في كتابه طبقات الشافعية شافعي المذهب، ربما لأنه رثى الإمام الشافعي بقصيدتين، ولم يقدم لرأيه ما يدعمه، وحب الإمام الشافعي وتقديره ليس مقصوراً على أتباعه في مذهبه الفقهي، ولكن هذه عادة من يؤرخون لمذاهبهم الفقهية، يحاولون أن يضموا إلى حظيرتها عطاء الرجال لأوهي الأسباب، وربما كان وراء رثاء ابن دريد للإمام الشافعي أن أم الشافعي كانت أزدية من عمان^(٥).

والحق أن الرجل بعيد عن الجدل المذهبي، فقد أخلص للعلم، ووهبه عقله ووقته، واحتفظ بمذهبه لنفسه في حنايا ضميره، وبخاصة أن حياته العلمية وتأليفه وتدريسه لا تتطلب منه أن يصدر فيها عن مذهب فقهي، فأثر أن يقف ظاهراً على الحياد بين التيارات المختلفة.

كان ابن دريد عالم لغة ونسابة، وأورد «بروكلمان» قائمة كاملة لمؤلفاته هذه، وينسب إليه الحصري القيرواني، المتوفى ٣٢١ هـ - ٩٣٣ م، أنه الذي ابتدع فن المقامات، فهو يقول: إن بديع الزمان الهمداني ألف مقاماته «لما رأى ابن دريد قد أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها

(١) الديوان، ص ١٠٩، والعلوى ٦٢.

(٢) الديوان، ص ١٩٩ والعلوى ٧٤.

(٣) ياقوت، معجم الأدياء ٢٦٣/١.

(٤) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ١٨٤/٢، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٤.

(٥) السبكي، طبقات الشافعية ١٤٥/٢، والديوان ٧٠ - ٧٢.

للأفكار والضمائر، في معارض حوشية، وألفاظ عنجهية، فجاء أكثرها تنبؤ عن قبوله الطباع، ولا ترتفع له حجب الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها، وفي وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضه بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفاً وتقطر حسناً...»^(١) ولم تصلنا مقامات ابن دريد كاملة، أو أحاديثه إن شئت، أو حتى شيء وافر منها، لكن ما رواه أبو علي القالى منها يكفى للقول بأنها كانت وراء اتجاه بديع الزمان، فهما يتفقان اسماً وغاية ولغة، وإن كانت أحاديث الأول، أى مقاماته، تدور حول حكايات عربية تمتزج بالحب والتاريخ، ومقامات الثانى، أى أحاديثه تدور على التسول والكدية، وتلتقط مادتها من واقع الحياة.

* * *

يجمع الذين عرضوا لابن دريد على أنه كان شاعراً، فتلميذه المرزبانى يقول عنه: إنه «غزير الشعر»^(٢)، ويرى المسعودى أن «شعره أكثر من أن نحصيه أو تأتى على أكثره، أو يأتى عليه كتابنا هذا»^(٣). ورغم الإشارات الكثيرة إلى غزارة شعر ابن دريد وفترته لم يذكر أى من المؤرخين السابقين أن ديوانه قد جمع في حياته أو بعدها إلا القفطى، المتوفى ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م، فقد ذكر في كتابه إنباه الرواة: «إنه في خمس مجلدات، وقيل أكبر من ذلك»^(٤). وظل شعره مبعوثاً في المصادر المختلفة إلى أن جاء السيد محمد بدر الدين العلوى، الأستاذ بجامعة على كرة، فاضطلع بعبء جمعه، وهو خير من يصف لنا الجهد الذى قام به، يقول في مقدمة الديوان:

«... وطالعت ألوفاً من الأوراق، فاستخرجت قدراً صالحاً من بطون الدفاتر والمجاميع، إلا أن ذلك لم يشف غليلي، فاستعنت بأرباب العلم من الشرق والغرب، والتمست منهم أن يدلوني على المكونات فأصغوا إلى، وظفرت من عنايتهم بما يعتد به (ومع هذا فلا أدعى الاستقصاء) فحسبت ساعاتى على تحقيق ما جمعته، وبذلت نفسى دونه»^(٥).

ويبلغ الديوان المجموع مائة مقطوعة وقصيدة، وقد تكون المقطوعة بيتاً أو بيتين أو عدة أبيات ورتبه هجائياً، بدءاً بالهمزة، وانتهاء بالياء، وأعقبه بالمربعة الدريدية الشهيرة التى نظمها في تسع وعشرين مقطوعة، كل مقطوعة أربعة أبيات، وبعدها ثلاث قصائد فيما يذكر من

(١) زهر الآداب للحصرى ٥٨٥/٤، تحقيق على محمد البجاوى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٧٢ هـ =

١٩٥٣ م.

(٢) المعجم ص ٤٢٥.

(٣) مروج الذهب ٥١٨/٢.

(٤) إنباه الرواة ١٠٠/٣، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠.

(٥) مقدمة الديوان صفحة جـ.

الأعضاء ولا يؤنث، وفيما يؤنث منها ولا يذكر، وفيما يجوز فيه الأمران، وتجيء بعدها قصيدة لامية في حرب وقعت قرب مسجد «دما» سنة ثمانين ومائتين.

وقد بذل السيد العلوي جهداً طيباً في تقويم ما كان محرفاً أو مُصحَّفاً، وأوضح في الهامش الأحداث التاريخية التي ترتبط بالشعر، وشرح من مفرداته ما ارتآه محتاجاً إلى شرح، وذُئله بفهرس للقوافي، وآخر للأعلام، رجالاً ونساء وقبائل، وثالث للأماكن والبقاع والأودية والجبال والأنهار، ورابع للكُتب التي أُلِع إليها في التعاليق.

وقد طبع الديوان في القاهرة، بمطبعة لجنة التأليف والنشر عام ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

وبعد ربع قرن من الزمان قام التونسي عمر بن سالم بجهد آخر شبيه، فقد عكف من جديد على شعر ابن دريد يجمعه ويحققه ويدرسه، ونشر ديوانه في تونس عام ١٩٧٣ م، وكان قد بدأ في جمعه عام ١٩٦٥ م، لأن هذا العمل يمثل بعضاً من رسالته التي تقدم بها لنيل الدكتوراه من جامعة باريس بعنوان: «ابن دريد، حياته، آثاره وتأثيره» باللغة الفرنسية، ووعد بأن تنشر الدراسة باللغتين العربية والفرنسية، وهو وعد لما يتحقق، على الأقل فيما يتصل باللغة العربية.

وقد اعترف الأستاذ عمر بن سالم بأنه اطلع على الديوان الذي حققه بدر الدين العلوي، ولكنه رأى أن طبعته، «وإن سدت فراغاً طيلة ربع قرن من الزمان، إلا أنها أصبحت اليوم غير كافية لأسباب عديدة منها:

* أنها طبعة نافذة، ومفقودة من مكتبات المغرب وأوروبا.

* أن هذا الديوان لا يجمع كل ما تبقى من شعر ابن دريد، سواء من ذلك الشعر المتداول المنشور الملقصور، أو الشعر المدفون المغمور كالمثلثة، وبعض المقطعات الأخرى التي أثبتناها.

* أن تحقيقات العلوي يعترضها شيء من قلة الضبط، وخاصة فيما يتعلق بالمصادر والمراجع التي لا يستفيد منها إلا المتبحرون في العلم أمثاله.

* أن الديوان موضوع حسب الترتيب الهجائي للقوافي، وهو ترتيب أصبحنا نستغنى عنه الآن بإثبات فهرس ملحق بالكتاب لا غير.

* أن الطريقة التي اتبعها المحقق في القصائد والمقطوعات طريقة عتيقة لا ترضى القارىء المعاصر، ولا تعطيه صورة عن الموضوع والمحتوى.

* أن طباعة الديوان وتنظيم صفحاته وضبط فهارسه لم تعد كافية في أيامنا هذه^(١).

وهو كلام مردود في جله على صاحبه، لأن نفاذ كتاب من المكتبات في الشرق أو الغرب ليس

(١) ديوان ابن دريد، دراسة وتحقيق عمر بن سالم، ص ٧ و ٨ تونس ١٩٧٠.

مبرراً لأن يعيد آخر طباعته ونشره، وترتيب الديوان هجائياً، أو أبجدياً، بحسب القافية يعنى عن فهرس لها، وهو أكثر فعالية، ولم أعرف ماذا يعنى بالطريقة العتيقة التى لا يرتضيها القارىء المعاصر، لأن منهج تحقيق التراث الآن معروف، ولا ينتبه المرء فيه إلى ما يرضى القارىء أو يغضبه، وليس واضحاً كذلك ما يعنى بأن طباعة الديوان وتنظيم الصفحات وضبط الفهارس عند العلوى لم يكن كافياً.

إن ترتيب ديوان أى شاعر هجائياً حسب القوافي له مبرراته المقبولة، والطريقة التى سار عليها الباحث التونسي من تقسيم الديوان موضوعياً مقبولة ولها مبرراتها أيضاً، ولو أنها فى الشعر العربى، وربما فى أشعار أخرى، مجهدة، فقد تتضمن القصيدة الواحدة أكثر من موضوع، كما أن الموضوع الواحد يمكن أن ينظر إليه من أكثر من زاوية، وقد أحس الأستاذ عمر بن سالم نفسه بذلك، فهو يقول فى المقدمة.

«لا يخفى على القارىء الكريم أن ما عهدناه من تبويب الشعر العربى لا يتماشى أصلاً مع ما عرف عن القصيدة التقليدية من شمول لمواضيع شتى، إذ قد يكون المحور الذى رتبت فيه هو أضعف محاورها إطلاقاً. وأن قصيدة كالمقصورة تحتوى على أبيات فى الحكمة والاعتبار تفوق ما فيها من نسيب ومدح ووصف أضعاف المرات»^(١).

اختط الدارس التونسي لنفسه منهجاً أوضحه فى المقدمة، يقوم على جمع القصائد والمقطعات تبعاً للموضوع المطروق، ورتبها فيما بينها ترتيباً «ألفبائياً» باعتبار القافية، إلا فى قسمى شعر العصبية والشعر التعليمى، فقد فضل فى القسم الأول أن يخرج من باب المديح والرثاء والهجوم إلى باب مستقل للشعر السياسى بالمعنى الحديث، حتى لا تقوم حواجز الترتيب والتقسيم، فيما يرى، حائلاً دون إفادة القارىء إفادة تاريخية متماسكة، ورتب القصائد فى هذا القسم ترتيباً يجارى سير الحوادث، لكى يتسنى له، فيما يقول، اتباع تطور أفكار الشاعر ومدى أضراره عليها من الزمن، وكذلك فعل فى القسم الثانى، فقد اعتبر المقصورة التى قبلت فى مدح الشاه ابن ميكال وابنه من الشعر التعليمى، لأن قيمتها فى نظره لم تعد فى هذه الأبيات القلائل التى ذكر فيها الممدوحين، وإنما فى قافيتها التى سارت بها الركبان، وتداولها من أجلها المؤدبون والمعلمون تلقيناً وتعليقاً، ومعارضة وشرحاً، كذلك خرج للغرض نفسه بالقصيدة التى قبلت للتعريض بالباهلى من باب الهجاء إلى باب الألفاظ اللغوية، لأنها فيما يرى ليست إلا قائمة بالفرائب والمشتركات اللفظية التى حاول فيها الشاعر أن يظهر أمام منافق بظهور الفقيه فى اللغة، المتبحر فيها^(٢).

على أية حال ثمة سبب كاف وحده لكى يقوم أى باحث على إعادة نشر ديوان سبق نشره

(٢) المصدر السابق، ص ٨ و٩.

(١) المصدر السابق، ص ٩.

دون حاجة إلى التقليل من جهد سابقه، إذا كان ما نشر لا يتضمن كل شعر الشاعر وأن هناك جديداً يمكن أن يضاف إليه، ونلاحظ في هذا المجال أن إضافة الأستاذ عمر بن سالم محدودة، لا تتجاوز عثوره على مثلثة لابن دريد، جاءت في ثلاثة وتسعين بيتاً من الرجز المشطور، عثر عليها في ثلاث مخطوطات توجد في دار الكتب الوطنية التونسية، إحداها كتاب «الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوى المناقب» لعبد القادر السلوى الفاسى، رقم ٢٩٦٨، وله مخطوطة أخرى، في المكتبة نفسها تحت رقم ٣٣٦١، والثالثة لكتاب «رى الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام» لأبى يحيى عبد الله بن أحمد بن محمد الزجال الأندلسى، وتوجد تحت رقم ٤٤٠^(١).

وهى إضافة جيدة دون أدنى شك، أما الإضافة الثانية، فالأبيات الأربعة التالية، وعثر عليها في سمط اللآلى في شرح القالى لأبى عبيد البكرى، المتوفى ٣٦٢ هـ - ١٩٧٣ م، ونحن نعرف أن القالى كان تلميذاً لابن دريد، وصحب معه إلى الأندلس كثيراً من كتب أستاذه ورواياته:

وما فى الأرض أشقى من محب
 وإن وجد الهوى حلو المذاق
 تراه باكياً فى كل وقت
 مخافة فرقة أو لاشتياق
 فيكى إن نأى شوقاً إليهم
 ويبكى إن دنوا خوف الفراق
 فتسخن عينه عند التنائى
 وتسخن عينه عند التلاقى^(٢)

نظلم ابن دريد إذا قلنا أن ما جمع من شعره يعطى صورة كاملة، أو قريبة من الكمال لشاعريته، أو تقدم لنا كل ما أبدع، لأن جانباً كبيراً من شعره ضاع فيما ضاع من تراثه وتراثنا، وبخاصة أن الفاصل الزمنى بين الشاعر الذى أبدع، والعالم الذى جمع يتجاوز الألف عام.

ولا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير ليعرف أن ما بين أيدينا ليس كل ما قاله ابن دريد فبعض المقطعات، وحتى بعض القصائد، يبدو فى وضوح أنها أبيات مختارة من قصيدة مثل نونيته فى تأييد الإمام الشافعى، ومطلعها:

وإذا قرأت كلامه قدرته
 سبحان أو يوفى على سبحان^(٣)

فواو العطف، وغيبية التصريح، والحديث عن فصاحته دون مقدمة أو تمهيد، يوحى بأن الأبيات

(١) أبو عبيد البكرى، سمط الآلى فى شرح القالى، تحقيق عبد العزيز المينى، ٩٨/٣، لجنة التأليف

والترجمة بمصر ١٣٥٤ هـ.

(٢) الديوان ص ٤٠.

(٣) الديوان ص ٧١، والعلوى ١٠٩.

بعض من قصيدة، وأحياناً تأتي القصيدة مسبوقة من الراوي بشارة تنبئ على أنها جزء من كل، كما في القصيدة العينية، فقد قدم لها القالي بقوله:

وقال من قصيدة أولها:

قلب تقطع فاستحال نجيعاً فجرى فصار مع الدموع دموعاً
ولكنه اكتفى منها بأربعة أبيات فحسب^(١).

ولى صاحب ما كنت أهوى اقترابه فلما التقينا كان أكرم صاحب
يعز علينا أن يفارق بعدما تمنيت دهرًا أن يكون مجانبى

وهما موجودان أيضاً في الديوان الذي جمعه السيد العلوى، وللحق أنها من مرويات ابن دريد عن أستاذه أبي عثمان الأشناداني، في كتابه معاني الشعر، وعلق ابن دريد عليها بقوله: «عنى الشيب، ويقول: لم أكن أشتهى اقترابه، فلما حل كان أقرب صاحب على، ولم أحب مجانبته لأنه لا يجانب إلا بالموت»^(٢).

كما فات جامعا الديوان، العلوى والتونسي، أن يشير إلى ما ورد في الأغاني بشأن البيتين:

يا من يقبل كف كل مخرق هذا ابن يحيى ليس بالمخراق
قبل أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتح الأرزاق
فقد ذكر صاحب الأغاني ما يفيد أنها ليسا لابن دريد بل لإبراهيم بن العباس^(٣).

ولا يجالني شك في أن متابعة دقيقة وشاملة لتراثنا، ومخطوطه أكثر من مطبوعه، سوف تهدينا إلى عدد أكبر من قصائد الشاعر ومقطوعاته، وقد وجدت له عند ابن المستوفى، شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي، في كتابه «نباهة البلد الخامل بمن ورد من الأمثال»، في ترجمة عبد الله بن أبي الفضل، المتوفى ٥٨٩ هـ - ٦٤٣ م، هذين البيتين:

يا راحلين بمهجة في الحب متلفة شقيه
الحب فيه بلية وبليتى فوق البلية^(٤)

(١) أبو على القالي، الأمال، ٧٩/١، والديوان طبعة العلوى ٧٩.

(٢) الديوان ص ٨٣، وطبعة العلوى ص ٤٠، ومعاني الشعر ص ٥٠، والسيد السنوسي: أبو بكر بن دريد الأديب وتحقيق وتعليق من أماليه، ص ٢٣٤، رسالة ما جستير بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م.

(٣) الديوان ص ٦٤، وتحقيق العلوى ص ٨٧، والأغاني ٥٩/١٠، ونهاية الأرب للنويرى ٩٤/٢.

(٤) ابن المستوفى، نباهة البلد الخامل، تحقيق سامى بن السيد خماس الصقار، ونشرة ٩٤/٢.

ويروى له ابن المستوفى عن المديني، علي بن أحمد، هذين البيتين أيضاً:

ليس بيني وبين قلبي اتفاق رأيه في الهوى يخالف رأسي
فمتى أخطو خطوة من أمامي يثب القلب وثبة من ورائي

وقد نسبها جمال الدين الأسنوي، المتوفى ٧٧٢ هـ - ١٣٧٠ م، في طبقاته للشهرستاني صاحب الملل والنحل، المتوفى ٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م، ولكن ابن خلكان يقول: «ان الشهرستاني كان يروى هذين البيتين مسندين للدريدي»^(١).

أبدى المسعودي رأيه في شعر ابن دريد، وجاء مجملًا ودقيقًا، يقول: «كان يذهب في الشعر كل مذهب، فطورًا يجزل وطورًا يرق»^(٢)، وشاع القول في عصره بأنه أشعر العلماء وأعلم الشعراء، وهي مقولة قد تحسب عليه، فأشعار العلماء قديمًا وحديثًا بينة التكلف، وشعرهم الذي روى لهم ضعيف، ولكن ابن بسام الأندلسي، المتوفى ٥٤٢ هـ - ١١٤٦ م، وهو ناقد صارم في أحكامه لا يداجي ولا يمالئ، استثنى من هؤلاء الشعراء «طائفة منهم خلف الأحمر فإن له ما يستندر، وقطرب أيضا له ما يستغرب... والخليل بن أحمد له أيضا بعض ما يحمد، ومؤرخ السدوسي، وابن دريد من الشعراء العلماء، وكذلك من علماء البصرة أبو محمد اليزيدي وبنوه»^(٣).

يمكن فهم شعر ابن دريد على ثلاثة أضرب متميزة:

أولها غنائى بحت، وثانيها تعليمى خالص، وثالثها يصعب وضعه في أحد الجانبين، لأن فيه غنائية واضحة، ومع ذلك لا يخلو من لمسات لغوية تحقق غاية علمية عملية، أو تغلب عليه المسحة التعليمية، ومع ذلك يجيء في نظم رائق، يجمع المتعة إلى الفائدة.

* * *

يشغل الشعر التعليمي الخالص جانبًا محدودًا من ديوان ابن دريد، وشأن كل الشعر الذي من هذا النوع لم يحظ من عناية الدارسين إلا بالقليل، حتى إننا لانجد أية دراسة مستقلة تتبع سيره عبر تاريخنا الأدبي بداية وتطورًا^(٤)، وقد ظلمه عدد من النقاد حين طبقوا عليه قواعد الشعر الغنائي فوجدوه يفتقد العاطفة والخيال والصورة، ومن ثم اعتبروه لا شيء مع أنه نوع

^(١) ابن المستوفى، نباهة الخامل، قسم ١ ص ٤٠٧، والأسنوي، طبقات الشافعية، ١٠٧/٢، تحقيق عبد الله الجبوري، بغداد ١٣٩٠ هـ، وابن خلكان، وفيات الأعيان ٤٠٤/٣.

^(٢) مروج الذهب ٥١٨/٢.

^(٣) اللخيرة في محاسن أهل الجزيرة، نشر إحسان عباس، ٨٢٤/١.

^(٤) حاولت ذلك بقدر ما تسمح به الظروف في كتابي: الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه، في الفصل الخاص بالأنواع الأدبية.

أدبي مستقل، صلته بالشعر الغنائي لا تتجاوز العروض والقافية، وقديم مثله، في أدبنا العربي والآداب الأخرى على السواء، وله مقاييس تقويم خاصة به، أو ينبغي أن تكون إذا لم تكن ووجدت في أدبنا العربي.

لدينا من الشعر التعليمي عند ابن دريد منظومتان، الغاية منها أساساً تعليم اللغة لطلابها، وربما أيضاً لإظهار مهارته في التمكن منها، وأنه على علم بدقائقها وأسرارها.

أول هاتين المنظومتين في المقصور والممدود، وأسماها بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي، وفي ملحقه عندما تحدث عن المدارس النحوية، وتبعه في ذلك المستشرق فلوجل، المقصورة الكبرى، أو كتاب المقصور والممدود، ولا نعرف من أين جاء بالاسم الأول منها، أما الثاني فسوف نعرض لمصدره بعد قليل. ويختلف عدد أبيات المقصورة في المصادر المختلفة، مخطوطة أو مطبوعة، فيذكر بروكلمان أنها من خمسة وخمسين بيتاً^(١)، على حين أنها في طبعتها الأولى، وجاءت ذيلاً لشرح المقصورة الدرديدية الذي طبع مع شرح لامية العرب للزمخشري، ونشرته مطبعة الجوائب في الآستانة عام ١٣٠٠هـ = ١٨٨٣م، جاءت في واحد وأربعين بيتاً، وفي عام ١٣٣٩هـ = ١٩٢١م، قام الأب لويس شيخو بتحقيقها وشرحها، ونشرها في مجلة المشرق في ثلاثة وأربعين بيتاً^(٢)، وقد وهم بروكلمان فظن أن ما نشره شيخو منظومة أخرى في المقصور والممدود، تختلف عما نشر ذيلاً لشرح المقصورة الدرديدية، ثم قامت مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق بعد ذلك بتحقيقها وشرحها على نحو أفضل، وجاءت أبياتها في هذه المرة أكثر عدداً، فبلغت سبعة وخمسين بيتاً^(٣).

هل هذه كل أبيات المنظومة أم ما وصلنا منها فحسب؟ أرجح الثانية، وأرى الجانب الأكبر منها ضائعاً، للأسباب التالية: فبروكلمان يسميها المقصورة الكبرى، ولو أنه لم يذكر لنا من أين جاء بهذا الاسم^(٤)، ولعله قرأه في مخطوطة لم تصل إلى علمنا، وهو يعني أنها أكبر من المقصورة الأخرى التي يتجه إليها الفكر حين يجيء الاسم مرسلأً، وهي التي حازت شهرة أوسع، وعدة أبياتها أربعة وخمسون ومائتا بيت، في أكمل رواياتها، فلزم أن تكون المقصورة الكبرى استجابة للوصف أكثر عدداً في الأبيات، ليجيء الوصف صحيحاً ومطابقاً لمحتواها. ثم التفاوت في عدد أبيات كل قسم، فبعضها جاء في ثلاثة وثلاثين بيتاً، لى حين أن بعضها الآخر لم يتضمن غير بيت

(١) تاريخ الأدب العربي ١٨٢/٢، والملحق الطبعة الألمانية ١٧٣/١.

(٢) مجلة المشرق، سنة ١٩٢١، المجلد ١٩، ص ٦٤-٦٦.

(٣) مجلة المجمع العربي، الجزء ٧، المجلد ٨، سنة ١٩٢٨، ص ٤٣٣-٤٣٧.

(٤) تاريخ الأدب العربي ١٩٨٢/٢.

واحد، وبداهة لم تستوعب كل جوانب المسألة اللغوية التي عرضت لها. وأخيراً فإن ياقوت والسيوطي يعتبرانها كتاباً بحاله^(١).

جمع ابن دريد في منظومته هذه الكثير من ألفاظ المقصور والمدود وأنواعها، وإن لم يأت عليها جميعها كما تعرض لها كتب النحو والصرف، كان التأليف في هذا اللون من اللغة شائعاً على أيامه وقبلها وبعدها، فألف فيه يحيى بن المبارك اليزيدي، والقراء والأصمعي، وأبو عبيد بن سلام، والمبرد، وابن ولاد، وابن كيسان، وابن الأنباري، وآخرون كثيرون غيرهم.

جاءت المنظومة على خمسة وسبعين بيتاً، في بحر الرجز، يضم كل بيت كلمتين متماثلتين، إحداها مقصورة والأخرى ممدودة، مع اتفاق المعنى أحياناً واختلافه أحياناً أخرى، وهي تتضمن بعض الحكم والأمثال التي تخرج بها عن حد الشعر التعليمي.

وهي مقسمة على عدة أقسام، كل واحد منها مختص بنوع معين من الكلمات المقصورة والممدودة، وأول هذه الأقسام جاء في ثلاثة وثلاثين بيتاً فيما يفتح أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف، ومطلعها:

لا تركزن إلى الهوى واحذر مفارقة الهوى

والثاني ما يكسر أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف، وهو في ثمانية أبيات أولها:

كم من عظام باللوى قد فارقت خفق اللوى

والثالث ما يكسر أوله فيقصر، ويفتح فيمد، والمعنى واحد، وهو في سبعة أبيات، أولها:

وأرى البلى يبلى الحد يد وكل شيء للبلاء

والرابع ما يضم أوله فيقصر، ويكسر فيمد، والمعنى واحد، وجاء منه بيت واحد:

تهوى لقا ما لا يحل وبعده يوم اللقاء

والخامس ما يفتح أوله فيقصر، ويكسر فيمد، والمعنى واحد وهو في ستة أبيات أولها:

وسكنت بيتاً ذا غمى ولتخرجن من الغمى

والسادس ما يفتح أوله فيقصر ويكسر فيمد، والمعنى مختلف، وهو بيت واحد:

وأراك تنظر في السحا لاضير في نظر السحاء

والسابع ما يضم أوله فيقصر ويفتح فيمد والمعنى مختلف، وهو بيت واحد أيضاً:

شمس الضحى طلعت عليك ولا ترى شمس الضحاء^(٢)

(١) ياقوت، معجم الأدباء ١٨/١٣٦، وبغية الوعاة ص ٣١.

(٢) الديوان، ص ١٣٨ - ١٤٢، والعلوى ٢٩ - ٣٧.

وثمة ثلاث مقطوعات أخرى جاءت كل واحدة منها في خمسة أبيات، أولها من بحر الكامل، وهي فيما يذكر من الأعضاء ولا يؤنث وبدايتها:

يا سائلاً عما يذكر في الفتى لا غيره عن صادق لك يخبر
رأس الفتى وجبينه ومقذه والثغر منه وأنفه والمنخر

والثانية في الصورة المقابلة لتلك وجاءت في بحر البسيط، وهي فيما يؤنث من الأعضاء ولا يذكر، ومطلعها:

الساق والأذن والفخذان والكبد والقنب والضلوع العوجاء والعضد
والثالثة فيما يذكر من الأعضاء ويؤنث على السواء، وجاءت في بحر الطويل، وأولها:
وهذى ثمانى جارحات عددها تؤنث أحياناً وحيناً تذكر
لسان الفتى والعنق والإبط والقفا وعاتقه والمتن والضرس يذكر^(١)

ومع أن هذا الشعر يفتقد جوهر الشعر الغنائى، وهو «التعبير عن تجربة»، ويستهدف غايات تعليمية عملية، لكنه صيغ في ألفاظ عذبة، وله موسيقا منسجمة، وخال من التكلف الذى نجده في المنظومات التعليمية عند الآخرين، ومرد ذلك أن الشاعر فيما أرى، تخفف من هذه المعلومات، وجاءت مجرد رصد للظواهر اللغوية، دون أن ينجح إلى التعقيد، مما يجعل الأبيات خفيفة على السمع، وضمنها شيئاً من النصائح، وأمشاجاً من الحكمة، من مثل قوله:

من خاف من ألم الحفا فليجنب مشى الحفاء
وأرى الغنى يدعو الغنى (م) إلى الملاهى والغناء

* * *

يغطى شعر ابن دريد الذائق كل الموضوعات التى يعرفها الشعر العربى قديماً، من غزل ومديح وهجاء وحاسة وعتاب ووصف ومخريات وحكمة، وتتفاوت قصائده في هذا الباب طولاً وقصراً تفاوتاً شديداً فأطولها، وهى التى قالها في الحارث العماني تبلغ ستة وتسعين بيتاً، وهناك أبيات مفردة، ومقطعات كثيرة من بيتين حتى سبعة أبيات، وباستثناء مقطوعات قليلة جداً، تشي مناسبتها بأنها قيلت في هذا العدد من الأبيات فعلاً، كما في هجاء نفظويه، فالبقية يغلب على ظنى أنها بقايا قصائد طوال، ضاعت لسبب أو لآخر.

وأغلب ما وصلنا من هذا الشعر هو في الحماسة أو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفخر والمدح القبلى، ووصلتنا قصائده كاملة، ربما لأن هذا الشعر يهم قومه، كما يهم شخصه، كما يهم رواته،

(١) الديوان، ص ١٤٣ - ١٤٤ والعلوى ١٢٤ - ١٢٥، وقد ذكر بروكلمان وأهاً أنها في ثلاثة عشر بيتاً، تاريخ الأدب العربى ١٨٣/٢.

فوصلنا كاملاً ونفهم منه أن ابن دريد كان معنياً بأمر قومه وهو في البصرة بعيداً عنهم، شأنه وهو في عمان مقيماً بينهم.

وهذه القصائد تجمع بين ألوان شتى من الحماسة، فهو يمدح الأبطال والشجعان من قومه، وكيف كانوا، وأى مثل ضربوا وأنهم جديرون باتخاذهم قدوة، ويفخر بهم، وبنفسه، ويؤلب قومه على أعدائهم، ويحرضهم على الأخذ بثأرهم، ويرثي قتلاهم، ويدعوهم إلى نبذ الخلاف والتوحد تحت راية واحدة، وعند المطالبة بالتأثر يدعوهم إلى ترك الدعة والترف والإعراض عن الشراب والغناء، وملذات الطعام، وإلى امتطاء الجياد وانتضاء السيوف:

ليس شأن الموتيرين مهاد	وغناء ومزهر وشمول
وصبوح مباكر وغبوق	وشواء ودرمك ونشيل
إنما ثوبه إذا اعتكر الاظ	سلام ثوب الدجنة المسدول
ومهاداه نمرق فوق كفل	عرشه غيهم البجاد مثول
ونديماه دائر الحد عضب	وأمين الفصوص نهد ذليل ^(١)

والمديح فيها هو ما يمدح به العربي عادة، وما يردده الشعراء إجمالاً في المناسبات المختلفة فالحارثي - مثلاً - ماجد، رحب المباة، عظيم المقارى، نشط وجيه، ويتجلى كرمه في الإبل المعدة لدفع المجاعات، وإقراء الضيوف، يقلب فيها ليختار، ثم انتقى بكرة ذات سنام عظيم، يرشح سمنها من جلداه، فنحراها فخرت صريعة، ومال إلى أخرى فاتقته برضيعها فجدله، ومال لثالث فصنع به كذلك، وتركه طريحاً، وجاء العبيد فمن بين من يسلخ الجلد بحثاً عن الشحم، ومن يستخرج الفرث. وفارت القدور الكبيرة الواسعة وأرزمت، وكان صوت هديرها أشبه بأصوات النوق المتبوعة بأولادها، وعلى فرش وثيرة ولينة راحوا يتعاطون الراح:

فلما أنخنا لم يؤده مناخنا	ولم نتعلل عنده بالعلات
ومال على البرك الهواجد مصلتاً	وهن معدات لدفع المغارث
فحكمت سيقاً لا تزال ظباته	محكمة في النناويات الماثت
فعيث ثم اعتم منهن بكرة	من الكوم لم يعلق بها حبل طامت
فتر وظيفيها فخرت كأنما	حوالب رफीها متون الخفاقت
ومال لأخرى فاتقته بسقيها	فجدله قصعاً ومال لثالث
فغادره يكبو وقام عبيده	فمن كاشط عن نيهن وفارث
وأرزمت الدهم الرغاب كأنها	تردد أرزام المثالى الرواغث ^(٢)

(١) الديوان، ٩٥-٩٦، والعلوى ١٠٣-١٠٤.

(٢) الديوان، ١٠٣، والعلوى ٤٥-٤٦.

إنه مديح يغير ما نعهده عند شعراء المديح الآخرين، فالمدح هنا لا يرى نفسه دون المدح وقال ما قال مسترفداً، وإنما يمدح فكرة ورمزاً يرى فيه القبيلة كلها، وهو أحد أفرادها. وبعيداً عن المدح القبلي، لا نجد له غير قصيدة من أحد عشر بيتاً يمدح فيها يحيى بن عبد الوهاب الملقب بالكاتب، وكان من أعيان البصرة، وتستغرق مقدمتها الغزلية وهي ذات طابع حديث ستة أبيات، ينتقل منها إلى مدحه بأبيات خمسة، لا جديد في معانيها، فالرجل على المهمة، واسع الكرم، ثم مدح أبا أحمد حجر بن أحمد الجرمي، وكان فقيهاً ومحدثاً ومقرئاً، وعمدة جويم، بأربعة أبيات، تدور حول وصفه بالجود والمكانة، ومدح أحمد بن يحيى الواثقى، وكان المعتضد قد كلفه ما بين سنة ٢٧٩هـ = ٨٩٢، ٢٨٩هـ = ٩٠٢م بمهمة في البصرة ببيتين أحدهما نلتقى به كاملاً في أبيات الواثقى^(١).

وإحساس ابن دريد بقبيلته، وأزديته، وقحطانيته واضح وقوى، وفخره مرتبط بفخره بقومه وزعامتهم وتاريخهم، وأنه من ذرى قطحان، وأنه رفيق النجوم تسأل عنه إذا غاب، وهو يفخر بنفسه شاعراً، وصحيح أن الناس يعطون الشعراء ويصلونهم، ولكن ما يعطونه بالنظر إلى الشعر حقير تافه فالشعر بحر ولا يبالى بالزبد الذى يطفو فوقه حين تتلاطم أمواجه، وإنه لو حمل نفسه على قوله لأتى منه بكل عظيم، ولا ستخرج كل غامض، وانتزع من مكنونه غوامض سره، مما لا يقع على مدفونه باحث أو حافز أو حافض. وقد تشرب قوم أذلة الشعر فعزوا به، والشعر موفور لكل طالب وميسور لكل رائد. ولو استحلب الضروع المثلثة، وما ترك لهم منه إلا ما فى الكرشة، وهو واثق من مضاء إدارته، وحزمه عقدة غير منحلة، فإذا عقد العزم فلن يقف فى طريقه شيء وإذا اعترضت الحادثات حزمه أقدم عليها فصدعها غير وان ولا متباطيء:

حبا الشعر تعظيماً أناس وأنه
وهل يحفل البحر اللغام إذا عمى
فلو أننى أجشمت نفسى انبعائه
وأبديت من مكنون غامض سره
تفوق دار الشعر قوم أذلة
ولو أننى أمرى حواشك دره
أرأى ولا كفران لله واثقاً

لأحقر عندى من نفاثة نافث
فطاح على تياره المتلاطث
لأخرجت منه غامضات المباحث
مدافن لم يظفر بها أثب
فعزوا به والشعر جم المرامث
تركت لهم منه فظوظ المفارث
بتأريب حزم عقده غير والث^(٢)

لا أعد بكاء ابن دريد للقتلى فى حماسياته رثاء، لأنه يجيء هناك وقوداً لإثارة الحمية وإلهاب المشاعر، ولا يقف ابن دريد عنده إلا بمقدار ما يخدم هذه الغاية، ومع ذلك فله قصائد أخرى

(٢) الديوان، ١٠٥، والعلوى ٤٨.

(١) الديوان، ٦٤، والعلوى ٨٧.

مطولة تدخل في باب الرثاء، وصلنا بعضها كاملاً، وهو في رثائه لا يبكي حكماً ولا عمالاً ولا موسرين، وإنما وقفه على العلماء، الذين عاصروهم أو الذين بلغته مكاتبتهم وأول هؤلاء محمد بن جرير الطبري، ٢٢٤ = ٨٣٩ - ٣١٠ = ٩٢٣، وهو أصلاً فارسي رحل في طلب العلم إلى العراق والشام ومصر، ثم نزل بغداد يعلم الحديث والفقه، وكان في أول أمره شافعيًا.

لقد جاء الطبري إلى الحياة بعد ابن دريد بعام واحد، وغادرها قبله بأحد عشر عامًا، وإذا عرفنا أن ابن دريد دخل بغداد عام ٣٠٨، تأكد لنا أنه لقي الرجل حيًا، وأن كلاهما كان في الأعوام الأخيرة من حياته، وإن لم يبدأ نشاطها العلمي، وأحسب أن ابن دريد كان يتابع نشاط الطبري، وربما راسله، حتى قبل أن يلتقيا، وقد جاء رثاؤه له، في خمسة وثلاثين بيتًا من الشعر، استهلها بأننا إزاء ما لا نملك له دفعًا ولا عليه تعقيبًا من أمور الله، وليس أمامنا إلا الصبر وخوف المولى، والتسليم بالقضاء والقدر، وقع منا موقع الكره أو الحب وفي العزاء ما يعزى، والأسى يطفئ جمر الأسى.

لن تستطيع لأمر الله تعقيبًا	فاستنجد الصبر أو فاستشعر الحوبا
وافزع إلى كنف التسليم وارض بما	قضى المهيمن مكروهًا ومحبوبًا
إن العزاء إذا عزته جائحة	ذلت عريكته فانقاد مجنوبًا

ثم يعرض في حكم مكتفة لأحداث الدهر، ويتحدث عن موت أبي جعفر، وقد صحبه علمه، ولم تكن وفاته وفاة رجل، وإنما علم الدين، ثم يمضي يعدد مناقب ابن جرير، عالمًا وتقياً، يرغب ويرهب، وتجلو مواعظه رين القلوب، ظاهره كباطنه، ومن يمده لا يأمن العجز والتقصير:

أودى أبو جعفر والعلم فأصطحبا	أعظم بذًا صاحبًا إذ ذاك مصحوبا
إن المنية لم تتلفه رجلا	بل أتلفت علما للدين منصوبا
أهدى الردى للثرى إذ نال مهجته	نجا على من يعادى الحق مصوبا
إن قال زمام الصدق منطقة	أو أثر الصمت أولى النفس تهذبا
تجلو مواعظه رين القلوب كما	يجلو ضياء سنا الصبح الغاهبا
سيان ظاهره البادى وباطنه	فلا تراه على العلات مجدوبا
لا يأمن العجز والتقصير مادحه	ولا يخاف على الإطناب تكذيبا ^(١)

وبعد أن عدد مناقبه، وجاءت في ضمير الغائب، توجه إليه بالحديث المباشر مخاطبًا: لقد كنت مقوم الزبغ، والناصح المؤدى، جامع الأخلاق المطهرة، النائي عن الجهل، ولكن الموت سنة الحياة، يرده الناس جميعا على فظاعته وكرهته، وما موتك إلا موت العلم، ومن أعاجيب الزمان التي لا تنفد أن يطويك لحد وكنت تملأ «السهل واللوبا»:

(١) الديوان، ٦٧ - ٦٨، والعلوى ٣٨ - ٣٩.

كنت المقوم من زيغ ومن ظلع
 وكنت جامع أخلاق مطهرة
 فإن تنلك من الأقدار طالبة
 فإن للموت وردًا ممقرا فظعا
 ومن أعاجيب ما جاء الزمان به
 أن قد طوتك غموض الأرض في لطف

وفاك نصحا وتسديداً وتأديبا
 مهذباً من قراف الجهل تهذيباً
 لم يشها العجز عبا عز مطلوبا
 على كراهته لا يبد مشروبا
 وقد يبين لنا الدهر الأعاجيبا
 وكنت تملأ منها السهل واللوبا^(١)

ورثي ابن دريد الإمام الشافعي، المتوفى ٢٠٤هـ = ٨٢٠م، بمرثيتين، إحداها جاءت في سبعة وعشرين بيتا، ولم يصلنا من الثانية غير خمسة عشر، وبلغت النظر أن الشافعي توفي في القاهرة قبل مولد ابن دريد بعشرين عاماً، فما وراء هذا الرثاء الذي جاء متأخراً، وقاله الشاعر في شببيته، ولكنه أكد بعد أن تجاوز العشرين عاماً، لأن أول شعر قاله، كما يشهد هو على نفسه:

ثوب الشباب على اليوم بهجته
 أنا ابن عشرين ما زادت ولا نقصت

فسوف تنزعه عنى يد الكبر
 إن ابن عشرين من شيب على خطر^(٢)

ولم أتبين الدافع وراء رثاء الشافعي واضحاً إلا أن يكون قبلياً، فقد كانت أم الإمام الشافعي من الأزدي في أقوى الاحتمالات، وأقام هو نفسه في اليمن أعواماً، حين ذهب إليها عمه أبو مصعب قاضياً^(٣)، وعلى أية حال فإن المرثية نفسها عمل شاذ لا يزال يجبو في عالم الشعر، وجاءت مقدمة الأولى، وهي التي وصلتنا كاملة، غزلية يتحدث فيها الشاعر عن إنسان لعب المشيب بفوديه فرده عن التصابي، وربما دعاه الصبا فأطاع، لأن الشيب لا يقرع من لا يردعه ليه وحيأوه:

بملتفتيه للمشيب طوالع
 تصرفه طوع العنان وربما
 ذوائد عن ورد التصابي روادع
 دعاه الصبا فاقتاده وهو طائع
 ومن لم يزعه ليه وحيأوه
 فليس له من شيب فوديه وازع^(٤)

ولكن ما الذي صده؟ أهو الحرص على جمع المال؟ إن الحريص عليه يعرف بأن ما يرباه ضائع، وأنه مفارق ما جمع، وسوف يخمل مهما ملك منه، ولكن الذي يبقى هو العلم والمثل ابن ادريس الشافعي، فأثاره بعده خير دليل:

(١) الديوان، ٦٨ - ٦٩.

(٢) الديوان، ٨٤ والعلوى ٦٨ وانظر: والمحمدون من الشعراء ٢٠٣.

(٣) بروكلمان ٢٩٢/٣.

(٤) الديوان، ٧٠، والعلوى ٧٧ - ٧٨.

ويحمل ذكر المرء ذى المال بعده
 ألم تر آثار ابن ادريس بعده
 ولكن جمع العلم للمرء دافع
 دلالتها في المشكلات لوامع
 معالم يفنى الدهر وهى خوالد
 وتنخفض الأعلام وهى روافع^(١)

ثم يلمح إلى مناهجه ومذهبه، يجمع رأى ابن ادريس ابن عم النبي، وهى الضياء إذا أظلم الخطب، وأعضلت المشكلات، ويعرض له متوفى فلا يجيء على ذكر الموت أو الردى أو اليلى كعادته، وإنما يشبهه بالمسيح على استحياء لأن هذا قد رفعه الله.

ثم يصف منهج الإمام ويعدد صفاته، وعندما نوازن بين مريثة الإمام الشافعى هذه ومريثة ابن جرير، نجد خلافاً في المطلع والمقدمة، ففى الأولى تجيء شيئاً يشبه الغزل إن لم تكنه، وفى الثانية دعوة إلى التسليم بقضاء الله وقدره، ولا تعليل عندى لهذا الاختلاف غير أن مريثة الشافعى قالها ابن دريد شادياً شاباً مقلداً، غير متمكن من تقاليد الشعر تماماً، وغير قادر على الخروج عليها، على حين أن الثانية قالها وقد تجاوز التسعين، ماتت عنده دواعى الغزل، ومتمكن من تقاليد الشعر، وهى تستثنى الرثاء من المقدمات الغزلية أو الطللية.

وجاءت مريثة ابن دريد الثانية فى خمسة عشر بيتاً، وأراها بقايا قصيدة أطول، لأنها تخلو من أية مقدمة، ومن التصريح، ويجيء إجمالاً فى البيت الأول ضرورة فى الشعر القديم ويبدوها بواو العطف، ويحدث مباشر فيه إن الشافعى سبحانه أو يوفى عليه، ولو شاهدته معد يخطب، أو ذوو الفصاحة من بنى قحطان أقروا له أنه أولاهم بالفصاحة والبيان، ويعدد بقية صفات الإمام الشافعى، وأنه رب العلوم، وذو الفطنة، والإمام المجتهد، وكتبه توضح وجوه الحق، وتبرهن عليه بأجلى برهان، مستدلاً بالقرآن والسنة ويهدى الباحث فى دينه إلى اليقين، وقد وفقه الله إلى العمل بهذين الأصلين، وأمه بعونه، وأراه بطلان المذاهب التى كانت تعمل بالرأى قبله:

وإذا قرأت كلامه قدرته
 لو كان شاهده معد خاطباً
 لأقر كل طائعين بأنه
 هادى الأنام من الضلالة والعمى
 الله وفقه اتباع رسوله
 وأمه من عنده بمعونة
 وأراه بطلان المذاهب قبله
 سبحانه أو يوفى على سبحانه
 وذوو الفصاحة من بنى قحطان
 أولاهم بفصاحة وبيان
 ومجيرها من جاحم النيران
 وكتابه، الأصلين فى التبيان
 حتى أناف بها على الأعيان
 ممن قضى بالرأى والحسبان^(٢)

وهناك مقطوعتان جاءت كل واحدة منهما فى أربعة أبيات، وأحسب أنها بقايا قصيدتين.

(١) الديوان، ٧٠، والعلوى ٧٨.

(٢) الديوان، ٧١-٧٢، والعلوى ١٠٩.

فنحن نعرف أن ابن دريد مندفع القول، تستجيب له القوافي، أولاهما من بحر الطويل، رائية القافية، وقالها فيمن يدعوه عبد الله بن عمارة، ولا نعرف من هو، ويغبط ابن دريد الثرى الذى صار قبراً له، واحتوى الجود والشجاعة والوجاهة، ويتمنى أن لو كان قبره بين أحشائه، وأن يقاسمه عمره لو كان بإمكانه، ويستكثر على حفرة من أربعة أذرع أن تضم «ثقال المزن الطود» وهى فكرة تتردد فى مراثيات ابن دريد وتعكس الأبيات صلة قوية، ووداً خالصاً لهذه الشخصية، ولم أعرها على خبر فيها درست من مراجع، ويظن المستشرق الإنجليزى مرجليوث أنه ابن عمارة المذكور فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، وبحسب كرينكو أنه عمارة بن وثيمة بن موسى الفارسى، المذكور فى كتاب المنتظم لابن الجوزى^(١):

لقد ضم منك الغيث والليث والبдра	بنفسى ترى ضاجعت فى بيته البلى
لصيرت أحشائي لأعظمه قبراً	فلو أن حياً كان قبراً لميت
وساعدنى المقدار قاسمتك العمرا	ولو أن عمرى كان طوع إرادتى
يضم ثقال المزن والطود والبحرا ^(٢)	وما خلت قبراً وهو أربع أذرع

وأما الأبيات الأربعة الأخرى وقالها فى عمه الحسين، فأشم فيها رائحة الواجب، وتأثره فيها دون تأثره فى الأولى، وهو يمدحه بأن العلاء نهد بعده، ولم يبق وراءه من ينقض ويبرم، وانقلب على الأرض سافلها يوم احتوته، أزهى الوجه أبيضه:

نجم العلى بعدك منقض	وركنه الأوثق منقض
يا واحداً لم تبق لى واحداً	يرجى به الإبرام والنقض
أدبل بطن الأرض من ظهرها	يوم حوت جثمانه الأرض
ولى الردى يوم تولى به	ووجهه أزهى مبيض ^(٣)

والأبيات الأولى عذبة شفيفة، تؤذن بالشجن العميق، على حين بدا الشاعر فى الثانية محايداً، يصف شيئاً من قبيل الواجب، وتساق فيها الكلمات سوقاً، كأنما يؤدى صاحبها واجباً أمام الناس لا بد أن يؤديه.

* * *

وابن دريد شاعر غزل، يهوى الجمال، ويطرب قلبه لمفاتن المرأة. وفى تعبيره عن لوايح هواه يبيىء شعره عفاً لا إسفاف فيه، رقيقاً غير مفتعل ولا جاف، متوافقاً مع نبض القلب إيقاعاً، بهجة وسعادة وارتفاعاً وانخفاضاً ووصلاً وهجرًا. وثلثى به صبا فى ثلاثة مواضع من

(١) الديوان ٦٩ الهامس رقم ١، وطبعة السيد العلوى ص ٦٧، الهامش رقم ٢.

(٢) الديوان ٦٩، والعلوى ٦٧. (٣) الديوان ٦٩، والعلوى ٧١.

شعره: مقدمات القصائد ومقطوعات وصلت مستقلة، لا نعرف أكيداً إن كانت خاطرة مرت بعقله أو قلبه، أو بقايا قصيدة طويلة أهلها الرواة وأبقوا على الغزل منها استحساناً أو لأسباب أخرى، ثم قصيدته المربعة، ومستوى غزله في غير المربعة واحد، إذ أنه حتى في مطالعه الغزلية لم يكن صانعاً ولا مقلداً وإنما توارى بمشاعره وراء تقليد لا يعاب على مثله شاعراً أن يبوح فيه بما يحس منها كانت منزلته القبلية أو الاجتماعية، ولهذا جاءت رقيقة كغيرها من غزله المستقل.

تمثل العين ودورها في الحياة العاطفية فكرة ملحة في شعر ابن دريد الغزل، فهو يعرضها لنا نافذة تطل منها على ما يعتمل في أعماق صاحبها، رضى أو سخطاً أو إثارة، وأداة نرى بها بديع صنع الله، وهى في الرجل بعض وسامته، وفي المرأة قمة جاهها، ولا يكاد يخلو غزله، مقطوعة مستقلة أو مقدمة في قصيدة، من صورة للعيون والدموع، على أن غزله في مقدمات قصائده جاء في ثلاث منها فحسب، في القصيدتين اللتين مدح بإحداها الحارث العماني وبالثانية من يدعى يحيى بن عبد الوهاب، وأخيرة افتخر فيها بنفسه وقومه.

يصف ابن دريد عينين ساحرتين طرفهما فاتر، وفيها انكسار ونعس دون أن يخالطها وسن، والسليم من نجا من تأثيرهما:

ليس السليم سليم أفعى حرة لكن سليم المقلّة النجلااء
نظرت ولا وسن يخالط عينها نظر المريض بسورة الإغفاء^(١)

وهو لا يقف عند عيون الحبيب، في فتنتها، وإنما يصف عيني المحب نفسه، أو عينه إذا شئت وقد أدمنت النظر إلى خد الحبيب فتكاد تذيبه:

صدغ كقادمة الخطاف منعطف في وجنة يجتنى من صحتها الورد
لو ذاب من نظر خد لرقته لذاب من لحظ عيني ذلك الخد^(٢)

ولدينا مقطوعة في ستة أبيات، هى مطلع قصيدة، لأن تلميذه القالى راوها يقدم لها بقوله: «وقال من قصيدة أولها» ثم يكتفى منها بهذه الأبيات، وفيها رقة غير عادية، ومعان مبتكرة بالنسبة لتلك الأيام، ويفرق فيها بين من يقصر عن عذر حقيقى، ومن يتكلفه وليس له، ولو كان يعرف أن الحاظ حبيبته مهلكة لا تحذ الحيلة لنفسه، وما يجرى في ماقيه ليس دمعاً خالصاً، وإنما روحه أيضاً تحدرت مع دمه:

ليس المقصر وانياً كالمقصر حكم المعذر غير حكم المعذر
لو كنت أعلم أن لحظك موبقى لحذرت من عينيك ما لم أحذر
لا تحسبى دمعى تحدر إنما نفسى جرت فى دمعى المتحدر

(٢) الديوان ٣٧، العلوى ٦٥.

(١) الديوان ٣٧، طبعة العلوى ٢٨.

خبرى خذيه عن الضنا وعن البكا
ولقد نظرت فرد طرفي خاسئاً
ليس اللسان - وإن تلفت - بمخبر
حذر العدا وبهاء ذاك المنظر
لو كنت أطمع فيك لم أتستر^(١)

ويجىء تصويره لليل العاشقين جديداً، وصورة مركبة، فعينه تسامر النجوم، في الوقت الذي ينادم فيه الصبا، وقد جعلته الراح يبوح بما أخفى، وتجدد عليه خيالاً بما منعه الكاعب واقعاً، وبدت الراح كاللجين المذاب، ويعلوها حبيب هو الدر معقوداً، ثم ينادى الليل أن يبقى، وأن يدفع عنه الإصباح، فهو لا يريد لليله أن ينقضى:

وليلة سامرت عيني كواكبها
يستنبط الراح ما تخفى النفوس وقد
نادمت فيها الصبا والنوم مطرود
جادت بما منعه الكاعب الرود
فالتبر منسبك والدر معقود
يا ليل لاتبع الإصباح حوزتنا
وليحم جانبه أعطافك السود^(٢)

وفي إحدى سفراته إلى عمان نزل في قرية تحت نخل، فإذا بفاختتين تتزاقان، فثيران مشاعره ويغبطهما على أنها لم يراعا بفرقة، ولن يشئت الدهر شملها، ويوازن بينها وبين حاله، قطع الشوق قلبه، ورغم ذلك صابر في قساوة الصخر.

أقول لورقاوين في فرع نخلة
وقد بسطت هاته لتلك جناحها
وقد طفل الإمساء أو جنح العصر
ومال على هاتيك من هذه النحر
ليهنكما أن لم تراعا بفرقة
ومادب في تشتيت شملكما الدهر
فلم أر مثلى قطع الشوق قلبه
على أنه يحكى قساوته صخر^(٣)

ويصف لنا قلبه نشوان وتوديع محبوب، وبكاء المحب شوقاً إن نأى، وخوف الفراق إن دنا، وحنينه الدائم، وثلقتى عنده بمقطوعة، أحسبها بقايا قصيدة، يصف فيها المرأة الجميلة كما يتصورها.

بيضاء البشرة، شعاع خدها يكسف الشمس، هيفاء القامة، ضامرة الخصر، ريانة الأرداف، مشرقة الوجه فكأننا منه في مشرق، فاحمة الشعر فكأننا منه في مغرب، إذا أشرقت أعشت العيون:

غراء لو جلت الحدود شعاعها
غصن على دعص تأود فوقه
للشمس عند طلوعها لم تشرق
قمر تألق تحت ليل مطبق

(٣) الديوان ٣٨، العلوى ٦٦.

(١) الديوان ٣٨، والعلوى ٦٨ - ٦٩.

(٢) الديوان ٣٧ - ٣٨، العلوى ٦٥.

وكأننا من فرعها في مغرب وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهدف للعيون ضياؤها الويل حل بمقلة لم تطبق^(١)

ثم تأتي إلى المربعة، وهي مجموعة من المقطوعات تبلغ تسعا وعشرين، فهي بعدد حروف المعجم العربي، رباعية الأبيات، وجاءت في أبحر مختلفة: ثمان منها في الطويل، ومثلها في الخفيف، وست في الكامل، وثلاث في المتقارب، واثنان في الوافر، وواحدة في المنسرح، وأخرى في الرجز، وكل مربعة لها قافيتها المستقلة، وبحرها المستقل، واستخدم في قوافيها كل حروف العربية مرتبة هجائياً، مبتدئاً بالهمزة ومنتهياً بالياء ومن هنا كانت أبياتها كلها ستة عشر ومائة بيت، وألزم نفسه بأن تكون المربعة، وكل بيت فيها، دائرية إن صح التعبير، فهي تبدأ، وكذلك كل بيت، وتنتهي بحرف القافية نفسه، ولنأخذ مثلاً المربعة الأولى:

أبقيت لى سقما يمازج عبرقى بمن ذا يلذ مع السقام لقاء
أشمت بي الأعداء حين هجرتنى حاشاك مما يشمت الأعداء
أبكيته حتى ظننت بأننى سيصير عمرى ما حيت بكاء
أخفى وأعلن باضطرار أننى لا أستطيع لما أجن خفاء^(٢)

وموضوعات المربعة ذاتية، أقرب إلى أن تكون غزلاً خالصاً، يشكو فيها المحب ألم الهجران، وشوق المحبين، مؤكداً على البكاء، والسقام وعدم النوم، وطول الليل من الحزن والهجر والبعد وقد أدى التزام الموضوع نفسه في كل مربعة إلى تكرار المعاني، وجاءت في صور جديدة، وفيها ألزم ابن دريد نفسه بما لا يستطيعه إلا قلة في عصره وبعد عصره أيضاً، وهي بادرة سار عليها أبو العلاء المعرى، وبلغ بها الغاية تجويداً وقبوحاً وصنع معها شعراً جميلاً، وأصبحت نمطاً راسخاً ومرتاباً في الأدب العربي.

استهدف ابن دريد بالمربعة إبراز مقدرته شاعراً متمكناً من اللغة، ولم يستهدف بها غاية تعليمية، إذ ليس فيها ما يعلم، واختار لغزله أرق الكلمات وأعذبها وأكثرها شاعرية، فلا تقع فيها على لفظ غريب أو غامض أو حوشى.

وتتردد فكرة الشيب في شعر ابن دريد واضحة، يرد الحديث عنه مستقلاً في مقطوعتين كل واحدة منها في بيتين، يرى في أولاهما أن الشيب صاحب كريم، لم يكن يوده، فلما التقى معه كان أكرم صاحب، ويعز عليه أن يفارقه بعد أن تمنى دهرًا ألا يقترب منه، وفي الثانية يحدد لنا السن التي بدأ فيها الشيب يدب في شعره، وكان في الخمسين من عمره، ورآه سقماً غير مؤلم:

أرى الشيب مذ جاوزت خمسين دائباً يدب ديبب الصبح في غسق الظلم

(٢) الديوان ٤١ - ٤٣، العلوى ١١٥ - ١٢٣.

(١) الديوان ٤٠، العلوى ٨٦.

هو السقم إلا أنه غير مؤلم ولم أر مثل الشيب سقماً بلا ألم^(١) -
 ويعرض له في ثانياً قصائده الطوال، وبخاصة في المقدمة الغزلية حين تكون، ففي قصيدته
 التي يمدح بها يحيى بن عبد الوهاب يختم المقدمة بالحديث عنه، فالشيب وليس وعظ النصيح هو
 الذي صده عن الصبا، ثم يبدأ الحديث عن ممدوحه:

النبل يشوى وقعهن وإنما يصمى فيقصد وقعها الألفاظ
 ما صده وعظ النصيح عن الصبا لكن نهاه مشيبه الوعاط
 لأبي علي في المعالي همة تسموبه وخواطر أيقاظ
 والجانب الآخر من الصورة أن يتحدث عن نفسه شاباً، ولكنه يخشى على شبابه أن تنزعه
 يد الكبر، ورغم أنه ابن عشرين لا زادت ولا نقصت هو من الشيب في خطر:

ثوب الشباب على اليوم بهجته فسوف تنزعه عنى يد الكبر
 أنا ابن عشرين لا زادت ولا نقصت إن ابن عشرين من شيب على خطر^(٢)

* * *

وابن دريد عالم مثل ما هو شاعر، ولذلك نجد له عدة مقطعات يحتفى فيها بالعلم والعلماء
 وعلماء الحديث من بينهم بخاصة، لتمييزهم بالصلاح والوقار والسكينة والحياء، وتمتعهم بين
 الناس بالمهابة والجلال، ويحل من قدر المؤدبين لأن العالم ابن نفسه، أغناه علمه عن حسبه،
 وإجلال العلماء يكون لمخبرهم وليس لمظهرهم:

لا تحقرن عالماً وإن خلقت أثوابه في عيون رامقه
 وانظر إليه بعين ذى خطر مهذب الرأى في طرائقه
 فالمسك إذ ما تراه ممتها بقهر عطاره وساحقه
 سوف تراه بعارضى ملك وموضع التاج من مفارقه^(٣)

تضمن شعر ابن دريد خمس مقطوعات وقصيدة تدور حول رأيه في الناس، وبعض أفكاره
 عنهم تتناثر في معظم شعره تقريباً، وتعكس فيما أرى ضيقاً مجتمعه في البصرة، فأقاويلهم كثيرة
 ولا أحد يسلم من لسانهم، وهم أشبه بزمانهم، لا يثبتون على وفاء ولا رأى:

الناس مثل زمانهم قد الحذاء على مثاله
 ورجال دهرك مثل دهر رك في قلبه وحاله
 وكذا إذا فسد الزم إن جرى الفساد على رجاله^(٤)

(٣) الديوان ٣٤، العلوى ٩٨.

(٤) الديوان ٢٢، العلوى ١٠٥.

(١) الديوان ٨٣، العلوى ١٠٨.

(٢) الديوان ٨٤، العلوى ٦٨.

وغايتهم لا تترك:

فإن كان مقدماً يقولون أهوج وإن كان مفضلاً يقولون مبذر
وإن كان سكيئاً يقولون أبكم وإن كان منطيقاً يقولون مهذر^(١)
ثم أجمل آراءه في قصيدة من ثمانية عشر بيتاً. أجمل ما قاله في المقطوعات وأكدته:

وإن كان ذا دين يسموه نعجة وليس له عقل ولا فيه طائل
وإن كان ذا صمت يقولون صورة ممثلة بالعى بل هو جاهل^(٢)

ولا نجد لابن دريد هجاء بالمعنى الدقيق للكلمة، لا فردياً ولا جمعياً، وإنما هناك ثلاثة مقطوعات فحسب تتصل بهذا اللون من القول، أولها بيتان هجا فيهما، بألفاظ مهذبة أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد، وزير المقتدر من ٣١٨ هـ = ٩٣٠ م إلى ٣١٩ هـ = ٩٣١ م، لأنه أنقص رواتب العلماء والمنح التي كانت تصرف لهم من بيت المال، لمواجهة العجز في الميزانية، بسبب سيطرة أم المقتدر على جباة الأموال والملتزمين بجمعها، وأن ضرره أعم من أبي خلاط وأبي الفرج بن حصن، وهما شخصيتان لم أقف لهما على خير:

سليمان الوزير يزيد نقصاً فأحر بأن يعود بغير شخص
أعم مضرة من أبي خلاط وأعيان من أبي الفرج بن حصن^(٣)

وخمسة أبيات أخرى تناول فيها اختلافه مع نحوي لم يذكر اسمه، وكان الهجاء الثالث لنظويه، لأن هذا نظم أبياتاً حط فيها من قيمة كتاب «الجمهرة» واتهم مؤلفه بأنه نقله عن كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، وعرضنا للقصة كاملة فيما سبق من صفحات.

لا نجد لابن دريد شعراً في الوصف، أو الطبيعة كما أفضل، غير أبيات قليلة جداً لا تتجاوز وصف أترجة في بيتين، وباقه نرجس في خمسة، وشقائق النعمان في أربعة وتفاحة في بيتين، والغمام في بيتين، وأوصافه دقيقة، وصوره محكمة، ولا يمكن القطع بما إذا كانت هذه الأبيات مستقلة إنشاداً أو أنها انتزعت لجمالها من قصائد أخرى ضاعت وسوف نكتفي منها بوصفه التفاحة:

وتفاحة من سوسن صيغ نصفها ومن جنار نصفها وشقائق
كأن النوى قد ضم من بعد فرقة بها خد معشوق إلى خد عاشق^(٤)

وفي قصيدته الطائية التي يبحث فيها قومه على الصمود والثأر، وقد أصابت عمان الدواهي بعد أن كانت آمنة مطمئنة، نجد وصفاً جيداً و متميزاً للحصان، لا يسير فيه على خطى سابقه

(٣) الديوان ٧٥، العلوى ٧١.

(٤) الديوان ٥٢، العلوى ٨٧.

(١) الديوان ٢١، العلوى ٦٨.

(٢) الديوان ٢٣، العلوى ٩٩.

وجاء في ثمانية أبيات تبدأ جميعها بفعل الأمر الموجه لاثنتين على طريقة شعراء الجاهلية «قرطاً»
 وقرط المهر وضع العنان عند أذنه خلف اللجام، والتقريط في وضع اليد مع العنان عند موضع
 القرط منه تدليلاً له، وهو لا يستخدم لفظ فرس أو جواد أو حصان، وإنما يؤثر دائماً «مهر»
 ويراه صديقاً مؤازراً يوم الروع، أحوى أحم، نضج وصلب، في عينيه بريق، يعلك لجامه، ويحرك
 كاهليه، أغر، لا بد أن يدرك تأره أو يلاقي حتفه:

قرطاً مهري العنان وشيكا فحري لمهري التقريط
 قرطاه نعم المؤازر في الر وع لاخلأ منه ونعم الربيط^(١)
 ورغم أن ابن دريد كان متهماً بالشراب، جاء حديثه عن الخمر فيما وصلنا من شعره قليلاً،
 فلم يعرض لها إلا في ثلاثة مواضع: مقطوعة من بيتين وصف فيها لونها:

حمراء قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبى نرجس وشقائق
 حكمت وجنة المعشوق قبل مزاجها فلما مزجناها حكمت خد عاشق^(٢)
 ثم يعرض لها في تفصيل أكثر في قصيدته الفائية التي يفخر فيها بنفسه: هي معتقة، اصطفتها
 الجن قبل أن يسكن الكون، ومهما بلغ الخيال لا يدرك كنهها، في الجسم تسرع، وفي الكأس
 بطيئة، مشرقة والليل داكن، يصرف الشارب نظره عنها وهو ثمل، وقد تجاوز تحريمها، والله غفور
 رحيم:

وعقار عتقتها	بعد أسلاف خلوف
كانت الجن اصطفتها	قبل والأرض رجوف
فهى معنى ليس يحتا	ط به الوهم اللطيف
وهى في الجسم وساع	وهى في الكأس قطوف
وهى ضد لظلام اللي	ل والليل عكوف
يصرف الرامق عنها	طرفه وهو نزيف
قد تعدينا إليها النه	سى والله رؤوف ^(٣)

وأخيراً يعرض لها في مقصورته، وخصها بسبعة أبيات، سوف نعرض لها عند حديثنا عن
 المقصورة^(٤).

ويبقى معنا ما يمكن أن نسميه بالشعر الاجتماعي، ويتضمن الإخوانيات والعتاب والاعتذار
 وعبادة مريض، وما ورد منه قليل جداً، فهناك بيتان توجه بهما إلى ابن أبي علي حين رده
 الحجاب، كما ألمحنا إلى ذلك قبلاً، والثانية اعتذار إلى أبي الحسن القاضي، عمر بن محمد بن

(٣) الديوان ٥٦، العلوى ٨٦.

(٤) الديوان ١٣٦ - ١٣٧.

(١) الديوان ٩٨، العلوى ٧٣.

(٢) الديوان ٥٢، العلوى ٨٦.

يوسف، ومنعه المطر من أن يسير إليه في مواعده، وجاءت في ثلاثة أبيات، ومثلها في عتاب أبي الحسن الوزير، على بن عيسى، وتولى الوزارة للمقتدر ثلاث مرات، ويبدو إنه تشفع عنده في أمر، ويذكره بأن أفضل أيامه تلك التي يعلق الناس فيها خيراً عليه، فإذا «عجزت فلن ترى من تهوى».

لقد عمر ابن دريد طويلاً، وسافر كثيراً ولقى أشخاصاً عديدين، وعاش في بيئات مختلفة، فأكسبه ذلك حنكة وقدرة على تكتيف تجربته في أبيات صارت مثلاً، وهذه الحكم لا يختص بها لون معين من شعره، وإنما تلقاها متناثرة عبر كل أبياته، غنائية أو تعليمية أو تيجيء بينها. وأخيراً نأتى إلى الشعر الذى يجيء في طبقة بين بين، فلا هو غنائى خالص، ولا هو تعليمى بحت، وإنما يتلاقى فيه الأمران في انسجام يخرج به عن حد أى منها ليجعل منه شيئاً متميزاً. وأول شيء نلتقى به في هذا المجال المقصورة، وحين يجيء اسمها مرسلًا دون أية إضافة أخرى لا ينسحب إلى غيرها، وهى قصيدة مقفاة بألفاظ تنتهى بألف غير ممدودة وتبلغ عدة أبياتها أربعة وخمسين ومائتين، وجاءت في بحر الرجز، ويقدر ما أهمل الأدباء القدامى والمحدثون شعر ابن دريد بقدر ما اهتموا بها، يقول ابن خلكان: «وقد أعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين، وشرحوها، وتكلموا على ألفاظها»^(١).

ولن أقف عند فن المقصورة ونشأته وتطوره في الأدب العربى طويلاً، فقد تناوله أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام في إحاطة ودقة عندما درس مقصورة حازم القرطاجنى^(٢)، وتناوله بإفاضة أحمد عبد الغفور العطار عندما حقق شرح ابن هشام اللخمي الأندلسى لها، والذى أخذ عنوان: «الفوائد المحصورة في شرح المقصورة» فقد مهد للنص بمقدمة وافية في مائة صفحة كاملة، عرض فيها للمقصور والممدود نحواً وصرفاً، وللقافية المقصورة في الشعر الجاهلى، وأثر القرآن في الشعر المقصور، والحفاوة بمقصورة ابن دريد، وشرحها، والذين عارضوها أو خسوها أو سمطوها^(٣) وفيما قاله هذان العالمان الجليلان كفاء.

غير أن المقاصير التى سبقت ابن دريد اندثرت كلية أو في جانب كبير منها، وكان هو الذى أحيا هذا الفن، ونالت مقصورتها من الشهرة والانتشار ما لم تحط به مقصورة أخرى.

(١) الوفيات ٤٤٩/٣.

(٢) محمد مهدى علام، أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة في الأدب العربى. حوليات كلية الآداب، جامعة إبراهيم باشا الكبير (عين شمس الآن) المجلد الأول، سنة ١٩٥١، ثم أعاد نشرها في كتابه دراسات أدبية، ص ٦٧ - ٩٧، القاهرة ١٩٨٤.

(٣) محمد بن أحمد بن هشام اللخمي، الفوائد المحصورة في شرح المقصورة، تحقيق أحمد عبد الغفار عطار، المقدمة ص ٧ - ١٠١، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م.

ومخطوطاتها توجد في معظم مكتبات العالم العامة، شرقاً وغرباً، وأحياناً تضم لها المكتبة الواحدة أكثر من مخطوطة، وحظيت بالعديد من الشروح، ولو أن كثرتها لا تعنى في غالب الأحيان شيئاً كثيراً، لأن الشراح ينقلون عن بعضهم البعض مع إضافات قليلة، وأحسب أنها كانت محاضرات للأساتذة، دونها طلابهم، ونسبوا إلى شيوخهم ولم يكن يعنى بها الشراح بدءاً أن تكون كتباً تنسب إليهم.

تبدأ المقصورة بيت يتحدث فيه ابن دريد عن ظبية تشبه المها، وترعى الخزامى بين أشجار النقا، ويحییء هذا البيت منبت الصلة بما بعده، والكثير من مخطوطات المقصورة لا يتضمنه، وساقط في معظم الروايات، ولا يرد إلا في رواية ابن راهويه المتوفى ٢٣٧هـ، أو ٢٣٨هـ = ٨٧٢م، فبعده مباشرة سوف يبكى شبابه الذاهب، ويصور مشيبه الزاحف، وقد اشتعل في رأسه اشتعال النسيم في جزل الغضا:

يا ظبية أشبه شيء بالمها	ترعى الخزامى بين أشجار النقا
أما ترى رأسى حاكى لونه	طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده	مثل اشتعال النار في جزل الغضا

ثم يشكو ما فعل الدهر به، وشدة ما يلقي في غربته من قسوة مبكية، وهو الجلد الصبور، ويعلم عجزه عن تغيير صروف الزمان الشغوف بتفريق الجموع، وتحطيم القوى، ولكنه ليس وحده في مواجهة صعاب الدهر، فقد فعل الزمن بأشراف قومه ما يفعل به الآن، وماتوا دون أن يحققوا آمالهم ويضرب المثل بامرئ القيس، وابن الأشج (عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث بن قيس الكندى) والوضاح (جذية الأبرص) ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة وبآخرين حققوا غاياتهم بعزيمتهم وشجاعتهم مثل: عمرو بن عدى، وسيف بن ذى يزن وعمرو بن هند:

إن امرأ القيس جرى إلى مدى	فاعتاقه حمامه دون المدى
وخامرت نفس أبى الجبر الجوى	حتى حواه الحنف فيمن قد حوى
وابن الأشج القيل ساق نفسه	إلى الردى حذار إشمات العدى
واخترم الوضاح من دون التى	أملها سيف الحمام المنتضى
فقد سما قبلى يزيد طالباً	شأو العلافها وهى ولا ونى
فاعترضت دون الذى رام وقد	جد به الجد الهيم الاربى
هل أنا بدع من عرانيين علا	جار عليهم صرف دهر واعتدى

ويتساءل: أيقسم بالنوق التى تحمل الحجيج، أم بالخيل الدريرة عليها بواسل الفرسان يخوضون الحرب غير وجلين ولا خائفين؟ إنه يؤثر أن يحلف بالأشراف من سلالة يعرب ابن يشجب بن قحطان أصل العرب، وخلال ذلك يصف السيف والفرس وصفاً دقيقاً مفصلاً، دافعاً

عنها كل عيب يتصور، ويصف مسيره إلى فارس، ومفارقتة العراق وأهله، لا عن قلى فهم القصة والناس دونهم.

ويخلص من حديثه عن الوفاء للعراق وأهله إلى الغرض الأصلي من القصيدة، وهو آل ميكال، فيوفيها حقها من المديح والثناء، ويخص تلميذه إسماعيل بشيء من الثناء قبل أن يعود إلى شكرها معاً.

ثم يتحدث عن ذكرياته شاباً، ويخص بالذكر غادة هيفاء لاعبته يوماً، تضى وتقسم، وتدل وتناى، لو ناجت الطي لأطاع أمرها، أو أصابت القانت لنسى نسكه، ومن جديد ينوه بقدرته على اقتحام الصعاب، ولا يصيبه يأس أو قنوط، يقابل خصمه بالأشد، ويعتصم بالحلم، وينأى عن الطيش والجهالة في غير ضعف ولا وهن، صيانة للعرض، وحفاظاً على الشرف والكرامة:

ولا عبتنى غادة وهنانه	تضى وفي ترشافها بره الضنى
تفرى بسيف لحظها إن نظرت	نظرة غضبى منك أثناء الحشا
على خدها روض من الورد على الـ	نسرين بالألحاظ منها يجتنى
لو ناجت الأعصم لأنحط لها	طوع القياد في شماريخ الذرى
أو أصابت القانت في مخلولق	مستصعب المسلك وعر المرتقى
ألهاه عن تسبيحه ودينه	تأيسها حتى تراه قد صبا

ومع اقتراب الشاعر من نهاية القصيدة تشغله فكرة الموت أكثر، وأى امرئ يأمل في امتداد العمر وديمومة الشباب، ولكن الحقيقة وهي غير ما تؤمل تفرض نفسها عليه، فليقبلها راضياً، ثم يتحدث عن رحلة في الصحراء شاركه فيها بعض الفتیان، فكان يحثهم على السير في الليل والجد فيه رغم الظلام، ثم يرد بثرًا بعيد العهد بالأنس، حوله الذئب يعوى، وما خافه ولا تردد ويصوره لغزاً، النار تصدر عن حك الأغصان بعضها ببعض:

ومنتج أم أبيه أمه	لم يتخون جسمه مس الضوى
افرشته بنت أخيه فانتنت	عن ولد يورى به ويشتوى ^(١)

(١) كانت العرب إذا أرادت استخراج النار أخذت عودين من المرخ (ويقال له الكلج والقفار والدفل)، فتقرض في أحدهما قرصاً، ثم يدخل العود الآخر في ذلك القرص وتحكه حتى تخرج النار، والغصن الأعلى يقال له الزند، والأسفل الزنده.

وهو يريد أن يقول: رب غصن مولود، أم مختار أم أبيه، يعنى الأرض، لأن الأرض أم الغصن، وأم الأصل الذى نبت فيه، فصارت أم أبيه، ويحتمل أنه يريد غصنا قطع من شجرة، فالفرع أبو الغصن، وتلك الشجرة أم الفرع وأم الغصن لأنها منها فصارت أم أبيه. والزنده من غصن أخو ذلك الغصن الذى أخذ منه الزند، لأن الأرض أمهما، فهذه الزنده بنت أخى هذا الزند.

ثم صعدت جبلاً صعب المرتقى، أملس الجوانب، يرقب الطريق، والشمس تشوى الوجوه، وأضاء النيران كي يهتدى بها السائرون، ويأوون إليه فيقدم لهم القرى. ومن الصحراء إلى مناجاة طيف الحبيب جاء من بعيد، رغم الأهوال، واهتدى إليه وهو لا يعرف شيئاً عن موضعه في فارس، ويتخذها مندوحة ليرد على سؤال طالما ألح عليه: ما الذى أزعجه عن وطنه؟ ولا يجد له جواباً غير أنها إرادة الله ويذكره طيف الحبيب، والحديث عن الوطن، بألوان من العبث والمجون أصابها شاباً، ويلوم نفسه عليها، ويخلص من ذلك إلى أبيات يعرض فيها للخمير، معتقة بنت ثمانين حولاً، صرفاً غير مزوجة بالماء، وهى الداء والدواء، وأراه أخذ هذه الفكرة من بيت أبي نواس الشهيرة: «وداؤنى بالتي كانت هى الداء»:

يا رب ليل جمعت قطريه لى	بنت ثمانين عروساً تجتلى
لم يملك الماء عليها أمرها	ولم يدنسها الضرام المحتضى
حيناً هى الداء وأحياناً بها	من دائها إذا يهيج يشتفى
قد صانها الخمار لما اختارها	ضناً بها على سواها واختبى
فهى ترى، من طول عهد إن بدت	فى كأسها، فى أعين الناس كلا
كأن قرن الشمس فى ذورها	بفعلها فى الصحن والكأس اقتدى
نازعتها أروع لا تسطو على	نديه شرته إذا انتشى

وتأتى النهاية ليعترف فيها ابن دريد بأن شيئاً من لذائذ الدنيا لم يفتته، فإن فجأه الموت فقد تناهت لذته، وبلوغه القمة يؤذن بالنهاية، وإن عاش صحب دهره عالماً بما ينطوى عليه من أحداث، فلن تهزه النكبات، ولن تبطره البهجة.

ووتدخل معنا المثلثة^(١١٨)، وندين بفضل معرفتها للباحث التونسى، عمر بن سالم، فى هذا الباب أيضاً، فهى ليست من الشعر الغنائى الخالص، ولا من النظم التعليمى، وإنما مجموعة من الحكم والأمثال سجل فيها ابن دريد تجاربه مع الحياة والناس بطريقة محايدة، خرجت من حيز التعبير عن الذات إلى دائرة التجريد، وجاءت فى بحر الرجز المنهوك فى ثلاثة وتسعين بيتاً، وللأبيات الثلاثة قافيتها المستقلة، وصاغها فى لغة سهلة للغاية على غير عادته، وقد يشمل كل بيت حكمة مثل:

ما طاب فرع لا يطيب أصله
حمى مؤاخاة اللئيم فعلته
وكل من واخى لئيماً مثله

وقد تتوزع الحكمة على بيتين ويختص الثالث منها بأخرى، مثل:

يا ربما أورثت اللجاجة
ما ليس للمرء إليه حاجة
وضيق أمر يتبع انفراجة

ومن هذا الباب أيضا قصيدة ابن دريد التي قالها يعرض فيها بالباهلى، أبى العلاء محمد ابن أبى زرعة^(١) وقتل يوم دخول الداعى صاحب الزنج البصرة سنة سبع وخمسين ومائتين وذلك يعنى أن ابن دريد قالها قبل ذلك التاريخ، أى قبل أن يرحل إلى عمان، ونحن نعرف أنه هاجر من المدينة قبل هجوم الزنج عليها بعام^(٢).

وقد تهاجى الاثنان: ابن دريد والباهلى، وتفاقم الأمر بينهما فتنافرا إلى أبى خليفة الفضل بن الحبا، وكان من علم اللغة والشعر بكان عال، يأتيه أهل الحديث فيقرءون عليه، فإذا أتاه أهل اللغة تحول إليهم وترك أهل الحديث، وقال: هؤلاء غناء. فلما تنافرا إليه اجتمع وجوه أهل البصرة، ثم تناشدا، فقال ابن دريد قصيدته التي بين أيدينا، وأنشد الباهلى قصيدة جاء فيها:

أبا بن دريد يقيسونى لقد ضربونى بسيف كهام

فقال أبو خليفة، أراك جعلت نفسك ضريبة، وجعلته سيفا، ثم غلب ابن دريد عليه، وانصرف أهل البصرة عن مجلسه، وهم يرون أنه قد أصاب الحكم.

لم أقع على قصيدة الباهلى فى أى مصدر آخر مما وصل إلى غير هذا البيت الذى بين أيدينا، وأورده الزبيدى^(٣)، وجاءتنا قصيدة ابن دريد كاملة فى ديوانه، فى ستة وخمسين بيتاً، فى بحر الهزج، ومطلعها:

ديار الحى بالرس إلى العمرين فالأبرق
كرجع النقش فى الطرس إذا نمق لم ينمق

وبعد أبيات يتحدث فيها عن المشيب والابتعاد عن اللذات لدنو النهاية، يعرض رأيه فى الأدب فيرفض الفاسد من الكلام، والشعر إذا غمض واحتاج إلى بيان، ويفضل منه السهل الجميل وأحلاه ما كان رجزاً، ولأمر ما يطلق العروضيون على هذا البحر حمار الشعر لسهولته، ومع ذلك أتى فيه بالغرائب المقلقة:

شנית الكلم المدخول والشعر إذا استغلق
بل السهو الذى يشبه نور الروضة المؤتق

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٢.

(١) الديوان ١٤٤ - ١٤٩.

(٢) الزبيدى، طبقات النحويين ١١٠.

اجل أن البيان الرجز يدعى حلية المنطق
وما أغربت بل أفلقت أن المغرب المفلق

ثم يوجه إلى الباهلي فيضاً من الأسئلة عن معاني طائفة من الكلمات اللغوية الغريبة، مما لا يتأتى للمرء أن يقع على معانيها في سهولة، ويمضى في أسئلته حتى آخر القصيدة موجهها السؤال بما غالباً، وهمل مرة واحدة وبخبرتي مرتين، وقد يجيء السؤال عن الكلمة مرسله، أو مقيدة بصفة أو صفات، والأغلب أن يتضمن البيت سؤالاً عن كلمة واحدة، وأحياناً عن كلمتين، أو عن معنى ثلاث كلمات، ويتجاوز عدد الأسئلة ستة وستون سؤالاً.

لم يقدم ابن دريد جواباً لأسئلته، وانتظرها من منافره وأصاب عمر بن سالم جامع الديوان حين أعطاها عنواناً: «ألغاز لغوية» ولا أظن الشاعر أراد بها التعليم بقدر ما أراد بها التحدي وإظهار مواهبه، وهى تقترب من الشعر الغنائى بقدر المسافة التى تبعد بها عن الشعر التعليمي، وصعب أن تلحقها بأى منها. ونأق على بعض أبياتها مثلاً:

فيا للناس ما الزيم إذا فصل أو دهق
وما التميم في الميسر إن جمع أو فرق
وما النعو ما البغو وما المعو إذا يفرق
وخبرنى عن السبت وسعم الحرة الخيفق
وهل تعرف بالليل حوى الخبت إذ يطرق

بقى أن نשוב خطأ وقع فيه «بروكلمان» وسار على خطئه بعض الباحثين، فهو يقول: إن الباهلي المقصود في هذه القصيدة هو أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي، وينص على أنه تلميذ الأصمعي، وأنه لم يبق لنا شيء من مصنفاته^(١)، ومحال أن يكون المقصود أحمد بن حاتم هذا، لأنه توفي عام ٢٣٥ هـ = ٨٤٨ م، وابن دريد ولد ٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م، أى أن سن ابن دريد كانت عند وفاة أحمد بن حاتم اثنا عشر في أبعد الأحوال، والمنافرة لا تكون إلا بين ندين في العلم متقاربين في السن، وهو ما نعتقه في هذه الحالة، وأخيراً فإن الزبيدي في طبقات النحويين، وربما نقلاً عن أبي على القالى تلميذ ابن دريد، نص على أنها كانت مع أبي العلاء محمد بن أبي زرعة، كما ألمحنا في البدء.

* * *

تبلغ قصائد ابن دريد في إحكام نسجها وجزالة لغتها مستوى المعلقات، وإن غربت في بعض ألفاظها، ومفيد لحاضرنا أن تُدرّس وأن تُدرّس، على أن يمهّد لدارسيها من الناشئة بنشرها في

(١) بروكلمان ١٦١/٢ و ١٨٢/٢.

بساطة، فسوف تمد الشادين منهم في مجال الأدب شعراً أو نثراً بزاد لا ينفد وتترى معجمهم اللغوى، فيعينهم على تنوع الصورة، ويمتاحون مفرداتهم من معين ثرى، ذلك أن ابن دريد عالم وشاعر، وهو يصدر في أدبه عن مخزون واسع من التراث، والتمكن من اللغة، والإحاطة بلهجاتها وغريبها، وهو في شعره مبدع ماهر، وصانع مقتدر، تواتيه القافية التي يريد، والبحر الذي يود، واللفظة التي يحب، ومن هنا فحتى شعره التعليمى لا يخلو من رقة وعدوبة، ولا تعوزه الحكمة والتجربة ينثرها في أبياته، وفي شعره الغنائى مبدعاً يعكس موفور علمه في اللغة، فتجد عنده اللفظة النادرة والشاردة والغريبة، وهو أمر يحسب له لا عليه، لأنه يعنى أن الرجل صادق فيما يبدع، عفوى في ما ينشد، والمناخ العلمى السائد حوله يسمع ما يقول، ويفهم ما يسمع، ويقدر ما يفهم، وغاية ما يبتغيه الفنان أن تبلغ تجربته غايتها.

وهو عربى فتح في أفكاره ومشاعره، تحركه النخوة العربية، ويتحرك في نطاق تقاليد حياة وسلوكاً، وفي نطاق العروبة هو أزدى قحطاني، وقصائده في الفخر والحماسة سجل حافل بأسماء الرؤساء من قومه، من سبأ وهمير، وثلثقى بأسماء جعفر الوهاب، وهو ابن الجلندى ملك عمان في عهد النبي ﷺ، والحارث العماني، وعياد بن عمرو بن الحليس، والصلت بن مالك، ونصر بن المنهال العتكى، وسويد بن سراة، وسعيد بن منهال، وراشد بن النضر الفججى، وفهم بن وارث، وموسى بن موسى، وهناء بن مالك، والأهيف بن خمخام، وسليمان بن عبد الملك السليمى، وعزان بن الخروصى، وشمس بن عمر بن غانم، ونصر بن زهران، وآخرين كثيرين.

هذا إلى جانب أسماء القبائل والبطون والأحياء: كنده، والقروط، وربيع، والعمور، والعتيك، واللبو، وبنى مالك بن فهم، ومعن، وبنى سلمة، والجراميز والعقاة، وحمام، والفراهيد، وآل دهان، وآل سيد، وصليمى، وبنى جهضم، وبنى شريك بن مالك، وبنى قسمل، وبنى جديد، وبنى حاضر، وبنى السامة، وقبائل أخرى.

وأسماء الأمكنة والبقاع لا تقل كثرة، فهناك الروضة، ودامث، والرس، وعمان، والقناعث، واللوى، ومأرب، ومادث، وماعر، والمباعث، والقاع، والخرجين، وحتى، ودامث، وخت، والملا، وأمكنة غيرها كثيرة.

وكلها تجعل من ديوان شعره وثيقة تاريخية وجغرافية عظيمة الأهمية، إلى جانب قيمته اللغوية والفنية، ولقد كان السيد محمد بدر الدين العلوى رائداً في جمع أشعار ابن دريد، وبذل جهداً مشكوراً في ضبط هذه الأشعار وتصويبها، بقدر ما تسمح به جهود فرد، ثم جاء الباحث التونسى عمر بن سالم فتقدم بالديوان في مجال الدقة خطوات أكثر، فأضاف إليه قليلاً، وضبط الأبيات ضبطاً كاملاً، ووثق القصائد والمقطوعات توثيقاً جيداً، بقدر ما سمحت له الظروف،

وأفاد من المخطوطات الموجودة في دار الكتب التونسية فائدة كبيرة، ورغم ذلك كله، اعتقد أن الديوان في حاجة إلى جهد أزيد، يقوم على متابعة كتب التراث جميعها، والمخطوط منها بخاصة، ومتابعة ما قد يكون فيها لابن دريد جملة، لمعاونة القارئ غير المتخصص على فهمه دون عناء. ووددت أن لو كانت لي وقفة عند وسائله الفنية في التصوير البلاغي لكل ما رأى وتناول، ولكني أرى الرحلة طالت، وموعدي بها دراسة أخرى.

أ.د. الطاهر أحمد مكى

أستاذ الأدب العربي

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة